رواية
أنا شيخي
الشيخ ابراهيم القديم

أنا شيخي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ

اسم الرواية: أنا شيخي

المؤلف: الشيخ إبراهيم القديم

المراجع الفكري: الشيخ عبدالمنعم العمران

مصمم الغلاف: السيد هيثم يوسف

الناشر: لجنة السيد الأمجد . الكويت

رواية

أنا شيخي

موقع الأوحد
Awhad.com

الشيخ إبرهيم القديم

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى كل شيخي يشعر بما أشعر به ..

مقدمة المراجع الفكري

بسم الله الرحمن الرحيم
اللَّهُمَّ صلِّ على محمَّد وآل محمَّد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد المصطفى وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد.. إن مما يثير الاهتمام - عند القارئ العزيز - تعدد موضوعات الكتابة عند أخي الموفق الشيخ إبراهيم القديم حفظه الله تعالى، حيث كتب في مجالات مختلفة، فتارة ألف في العقائد، وأخرى في العرفان النظري، وثالثة في العرفان العملي، إلى غير ذلك من الكتب ذات الموضوعات المتنوعة.

وفي هذا اليوم يتحفنا بكتابه - الكتاب الذي بين يديك - الجديد: **(أنا شيخي)**، وهو عبارة عن رواية مؤثرة، مزج فيها الخيال

بالواقع، والحزن بالفرح، والاضطراب بالطمأنينة. وعكست في جوانبها مدى سلطة النفس الأمارة على العقل الإنساني، وشدة اضطراب المجتمعات البشرية، وخطر تأثير الخلفيات الثقافية والموروثات الاجتماعية على طبيعة المجتمع البشري، وتحوله من حال إلى آخر.

وقد برزت للكتاب خصائص متعددة، ومن أهمها:

١ـ إن الكتاب يظهر سعة أفق الكاتب، وثراء خياله، وهذه ميزة مهمة في العمل القصصي؛ لأن خصوبة الخيال من أهم العوامل المؤثرة في قوة الرواية، وأحد الركائز الأساسية للفت اهتمام القارئ، وعمق تأثره بها.

٢ـ استخدام الأدب القصصي كأداة معرفية هامة، حيث إنه بث ـ في مجريات أحداث الكتاب ـ مسائل عقائدية مهمة، وأفكار اجتماعية مقلقة، وهموم الشباب المؤمن الملحة. وطرحها بأسلوب شيق ومثير، خاطب به العقل مرة، وأثار به القلب مرة أخرى.

٣ـ سلط الكتاب ـ في طياته ـ الأضواء على سنة إلهية جد خطيرة، حيث بين فيه عاقبة الظلم، وهي الندامة والحسرة في

موضع لا ينفع ذلك، وهذا مما فيه عظيم الفائدة للإنسان والمجتمع؛ لأنها للفرد موعظة بالغة لئلا يظلم، وللمجتمع فيها تحذير شديد من مشكلة إذا فشت انتشر معها التفكك الاجتماعي، والانهيار الأسري، والتمييز الطبقي، والألم الروحي. وتكمن فائدة ذلك في أن معرفة المشكلة هي أساس حلها.

الشيخ/ عبد المنعم العمران الأحسائي

١٤٤٠/١٠/١٧هـ

الفصل الأول

ما قيمة الألم الجسدي إذا قيس بألم النفس الذي يجعل رؤية كل شيء يصبح لا شيء في لحظة واحدة ؟

الأحساء ـ آذار (٢٠١٠م)

بعد خمسة أسابيع من حادثة الاختطاف

عبد علي

جلست وقد وضعت رأسي الثقيل بين يدي اللتين كانتا لا تقويان على حمل كل ما يجول بداخله ؛ بجوار النافذة أتلقى من أشعة الشمس كل ما كانت تسمح لي به منها قضبانها الحديدية.

لست مريضاً بمرض جسدي يحتاج إلى فيء الظلال، أو إلى تلقف أيدي الفراش حينما يشتد به ألمه، فأنا شاب قوي البنية أتمتع بصحة جيدة، ويجري الدم في عروقي بحرية تامة ؛ ولكنني مصاب بمرض آخر، مرض مميت صنعته أيدي البعض الذين ما زلت حتى الآن أتساءل : "ماذا يضير لو أنهم تركوني وشأني، ولم يفعلوا بي كل ذلك؟".

فما زلت بعد مضي خمسة أسابيع من وطأة الأحداث العصيبة التي جرت بيني وبينهم ؛ أقيم وحدي مع تلك الفكرة التي أتجمد رهبة من وجودها معي، وأرزح تحت تأثير مفعولها في كل ساعة،

١٤

وفي كل دقيقة بلا ترتيب وبلا نهاية، وهي أن هناك من يعتقد بأني إنسان شاذّ عنه، ولا أستحق العيش معه على هذه الأرض وفق الإيديولوجية التي تحلو لي؛ بل يجب أن أعيش وفق ما يحلو له.

فإن حال من هو مثلي ليس مسموحاً له أن يعيش ويشعر بالحياة بمزيد من الغزارة أكثر من أي وقت مضى، وليس مسموحاً له أن يموت وفق دستوره؛ فمصير كهذا لا خير فيه عند البعض.

والشيء المؤكد لحال البؤساء أمثالي، هو أنكم ستعثرون علينا جاثمين في المقابر، أو عند النوافذ نراقب حركة الحياة ولا نستطيع المشاركة فيها.

فنحن مجرد ظلال شاحبة، بل أقل من الظلال، وحينما نرحل سنختفي فقط، سنصبح هباءً ولن نخلف وراءنا ولا أثر زبد حتى، ولا رجع صدى!

فهل تعلم: أيّ وعي هو مركون بجانب تلك النافذة الآن؟

إن جسمي قد أحب خلوته أسراً وجبراً، لا طوعاً واختياراً؛ فهو ليس أسوأ من أن يكون ميتاً.

١٥

وأن نفسي على الرغم من كل شيء في هذا العالم الممتد من الأرض إلى السماء سجينة فكرة مروعة لا ترحم، تحاول أن تورثني الجنون حينما أقلّبها كما يفعل المرء بين اليقظة والنوم.

فقد لجأت إلى سبل مختلفة، وأنواع شتى من العلاجات في محاولة للهرب مما أنا فيه، ومهما فعلت فإن هذه الفكرة الرهيبة تقبع هنا دائماً إلى جواري، تحاصرني كلما أردت أن أدير رأسي أو أغمض عيني، وتلح عليّ وترغمني بالبقاء ساكناً في الوقت الذي ما زال أولئك البعض يعيش بمتعة عارمة على وأدها، وحبسها في داخلي مهما أمكنهم ذلك، وبكل الطرق المتاحة أمامهم.

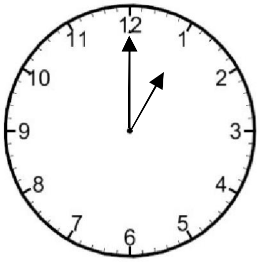

الساعة الآن الواحدة
بعد منتصف الليل

استيقظت فزعاً بسبب تلك الفكرة المؤلمة، وأنا أكرر: "إنه ليس إلا حلماً".

١٦

لا أستطيع أن أنام من أثر القلق والرعب، وحينما أنام من الضيق والكلل فهي لا تكتفي بمطاردتي في وقت يقظتي؛ بل تتجسس عليّ حتى في منامي المضطرب.

تلتصق بروحي الكئيبة، وتغيب في بدايته، ثم تظهر مرة أخرى في أحلامي في صورة حبل المشنقة، وأحياناً في صورة مقصلة الإعدام!

"ماذا أفعل من أجل أن أتخلص من هذه الفكرة؟"، قلت لنفسي وأنا ممدّدٌ على الفراش بغير حركة، وروحي نصف نائمة.

بقيت هكذا للحظات، ثم قررت استجماع أطراف قواي الواهنة للنهوض من فوق فراشي، لا من أجل شيء، ولا للذهاب لأي مكان، فقط تغيير المكان هو ما كنت أشعر بحاجة ماسة إليه.

كانت ساقاي المتخاذلتان لا تقويان على حملي، فتعثرت عند أول خطوة خطوتها بجانب منضدتي، ولخشية الوقوع الكامل حاولت أن أتمسك بأطرافها؛ ولكن من دون جدوى لم تقع يدي إلا على لوحة المفاتيح التي سحبتها معي وأنا أهوي بجسمي الهزيل نحو الأرض.

١٧

وأنا مستلق شبه المكور على وجه الأرض كنت أتحسس لوحة المفاتيح تلك في عتمة الغرفة المظلمة قبل أن يكرر صوت داخلي لا أعرفه هامساً في نفسي :

"إن اللحظة الحاسمة قد حانت ! عليك أن توقظ تلك الفكرة الآن ؛ فوحدها الحروف من سيطلق سراحها" .

"ولكن ماذا سأكتب؟

فهل سيكون لديّ ما سأقوله ، وأنا الذي صرت إنساناً لا داعي لوجوده في هذا العالم؟" .

صوت آخر يعترض هامس الصوت الأول.

وفجأة ، توقف تقطع أنفاسي ، واضطرمت في أعماقي عاصفة عاتية ، ولم أعد أسمع إلا صوت رياح نقرات المفاتيح وهي تنطق بكل حرف من حروف تلك الفكرة المؤلمة ، التي بدا لي كل واحد منها في تكتل شخوصه وكأنه عالم من عوالم تلك الأحداث التي أظل أهدم وأبني أجزاءها الجهنمية في نفسي دون انقطاع.

لا بدّ أن ألمي كان شديداً ، أو ثمة يد كانت ترفرف فوق رأسي في الهواء.

يد ذات جرح أبدي سمرها شخص ما بمسمار كبير إلى الأبد ؛ بحيث إنه ظهر كل ما أحس به من المشاعر الكثيرة التي كانت تتضارب في خاطري دفعة واحدة، مما جعل عجلة الحروف المتناثرة تأخذ مسارها بعيداً، وصارت الصفحات تتقلب بسرعة حتى النهاية.

دقت الساعة الآن الواحدة
وخمس ثوان منذ لحظة

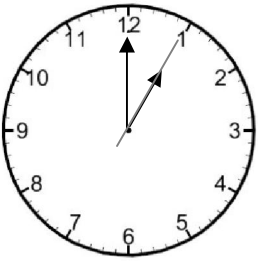

لطالما اعتقدت أن التغييرات العميقة ـ سواء أكانت عند الكائن البشري أم في المجتمع بصورة عامة ـ إنما تحدث في فترات قصيرة جداً من الزمن ؛ ولكن ذلك لم يقف عند هذا الحد، بل طال حتى تكتل حزمة المشاعر التي تقبع في داخلي.

فإني لم أحتج سوى خمس ثوان ـ اختصاراً للوقت من ناحية عالم الواقع، واتساعاً له من ناحية عالم الخيال الفسيح ـ ما فتئت

تتضاعف ببطء، وتتحول شيئاً فشيئاً من أجزاء ثوان إلى ثوان في حديثها عن تلك الفكرة.

خمس ثوانٍ فقط!

كل ثانية منها كانت كافية لرصد الأحداث العديدة التي توالت وتزاحمت صورها الغير واضحة في ذبذبات السطور بصورة متسلسلة.

ومما لا شك فيه، أنه لولا مآل الثانية الأولى لم يكن لهذه الفكرة المؤلمة بداية، ولولا مآل الثانية الأخيرة لم تكونوا قادرين على سماع أحداث البقية منها، التي جاءت حبكتها من مجرد وثبة جريئة، ووسيلة وحيدة استطعت بها أن أخفف بعض الشيء من آلام هواجسها.

فإن وجود حروفها على الورقات خليق بأن ينفه عني، ويعطيني بعض التسرية. وإن كان مآلها عند البعض مجرد قصة تكسر فراغ الوقت، وتدب في مجالسهم بعض الحيوية حين سردها على مسمع الآخرين؛ إلا أنه بعد الانتهاء منها عنت لي الشيء الكثير.

٢٠

وسواء أكان ما كتبته في هذه الورقات ـ التي انتهيت منها للتوّ ـ يمكن أن يكون نافعاً لغيري لو أتيح لها أن تنشر في يوم من الأيام، أم بقيت في درج منضدتي لحين أن تتعفن من رطوبة خشبها الذي بدأت أشتمّ رائحته منذ مدة، أو يعبث فيها من يجدها مجرد ورقات عديمة النفع بالرمي أو بالإهمال؛ فهي الأسرار الأخيرة التي يجب أن تروى لإنسان يسعى إلى إيصال جوانب الأحداث التي تناولت ألواناً من المعرفة، وعالجت أنواعاً من التصورات لأولئك الذين يصدرون الأحكام جزافاً؛ لتكون أكثر من مجرد درس لهم في الحياة!

نعم، فقد تجعلهم أقل تسرعاً في المستقبل، وتحملهم على شيء من التروي عندما يكون الأمر متعلقاً بتشويش أو دهس أثمن ما يملكه الإنسان في حياته؛ كمشرب معتقده الديني الذي استيقن به بقناعة تامة.

فإنه وإن كان هناك اختلاف بين البشر في هذا الجانب إلا أننا جميعاً نشمئز من حفنة العنصرية في منظومة الدين، ونمقتها مقتاً شديداً حينما تمارس علناً، أو حتى خلف الكواليس.

٢١

وما أعنيه من عنصرية مستبدة هنا، ليس تلك التي بين رسالة سماوية وأخرى، ولا بين مذهب وآخر، فهذه قد حسم أمرها الزمن وكأنها داء فيه؛ بل إني أتحدث عما هو أخصّ من كل ذلك بكثير، عن عنصرية الجماعات المكونة من نفس الأفراد؛ كعنصرية النظر إلى كوني إنساناً شيخياً من قِبل مجموعة لا أختلف عنهم في شيء بتاتاً؛ إلا بما زاد عليهم ولم يفهموه.

وعلى أي حال، كان على أولئك التعساء الذين يفخرون بقدرتهم على فعل ما حدث أن يعلموا فقط لمرة واحدة:

إن ذات الكيان الذي أرعبوه وعذبوه قبل أن يكون مختلفاً عنهم في جانب مشربه؛ هو إنسان قد اعتمد على الحياة، وأن فيه روحاً كانت تود أن تعيش معهم في سلام تام.

التوقيع/ عبد علي

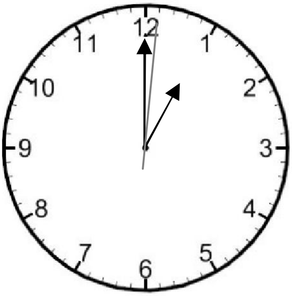

الثانية الأولى

...

إنها ثانية الاعتراف التي يعيش على نتائجها بعض البشر؛ وكأنه لا يوجد لهم هواء يتنفسونه إلا هواء هذه الثانية.

فهل حدث معك في ذات مرة؟

أن كنت صامتاً تخفي شيئاً ما، وفجأة في خلال ثانية واحدة فقط انطلق منك ذلك الشيء الذي سيتلقفه من حولك في ألف تفسير وتفسير.

هذا ما أعنيه بثانية الاعتراف التي ستندم عليها تالياً أكثر من ندم التشبث بإخفائها عميقاً.

فمن الحكمة أن نعلم: بأنه ليس كل ما يعلم يقال، وليس كل ما يقال حضر أهله أو قد حان وقته.

"أنا شيخي". حينما زلت هذه العبارة الصغيرة من لساني، وتدفق منها مسار تلك الثانية التي تقذف دائماً بجميع حمم بواطن حياتنا الفردية إلى عدد ضخم من ثواني الكوارث المفتوحة أمامنا؛ لم أكن أعلم بأن هناك صفحة جديدة في انتظاري مليئة بالأحداث المؤدية إلى غيرها وغيرها من الثواني.

كنت أرتاد يومياً مقهى محاكياً للطابع القديم محاكاة فجة، جدرانه طُرشت بالطين الأحمر مع أوراق التبن اليابسة، ومقاعده نجدت بالمخمل الأبيض المزركش في الأطراف لتوحي بطابع التراث الشرقي القديم.

وفي ذلك اليوم، قبل أن يستقل أحد البسطاء الجالسين الذين كانوا يستهلكون الجرائد أكثر من استهلاكهم المرطبات الحلقة الدرامية لهذه الثانية ليجتاح عالمي الداخلي من دون سابق إنذار فيعبث بما شاء فيه؛ كنت جالساً في تلك الساعة من مسائه التي احتلّ فيها الهواء الثخين المشوب بنفثات لولبية من دخان النراجيل أجواء المكان، بالطريقة نفسها التي يتأمل بها عالم الفلك المتفرد في مرصده عبر فتحة المنظار الدقيقة عدداً لا يحصى من النجوم، يدرس بريقها المتنامي، وتنقلاتها الملغزة، وتغير مواقعها الدائم كل

ليلة ؛ أتفحص بنظارتي عالماً آخر، متحركاً ومتحولاً، عالماً يفوق عالمنا، هو عالم الكتب الحكمية الإلهية.

دنا مني رجل في مقتبل العمر بخفة دون أن أنتبه ؛ لخشوعي الذي بلغ حد الكمال في التركيز، ثم ضرب الطاولة بيده، بالقوة التي نطرق بها باباً.

كان يعتمر قبعة سوداء مخططة، ويرتدي معطفاً بنيًّا طويلاً، ويمسك بقنينة مرطبات شبه فارغة بيده اليمنى.

وبحركة آلية رفعت رأسي إليه متفاجئاً للإعراب عن سخطي على جرأته في قطع سلسلة أفكار الصفحة الهامة التي كنت بصدد قراءتها ؛ غير أن نظراته العميقة المفكرة بعينيه الصغيرتين المتوقدتين، وهو مؤمئ بطرفه في تعبيرٍ عن الدهشة لما لمح اسم الشيخ الأوحد قدس سره لامعاً على صفحة الغلاف الذي كنت أقرؤه ؛ جعلتني أنزع نظارتي بمنتهى البرود والتأني، وأسأله : "هل من خدمة أقدمها لك؟".

مثل رامٍ يصوب سلاحه نحو مرمى رد السؤال بسؤال وهو يمسّد لحيته : "هل أنت شيخي؟".

في ثانية كنت شديد الرغبة في احتقار هذا الأحمق بعدم الرد عليه لتسريحه من أمام وجهي ؛ لولا أن ثار في نفسي شعور جنوني حثني على أخذ سؤاله مأخذ الجد.

ففي مثل هذه الحالة التي كنت فيها ، قد يعتقد المرء أحياناً أن في وسعه أن يحطم سلسلة حديدية بمجرد شعرة من اعترافه.

وفي ثانية أخرى تملكتني حيرة لم أشعر بمثلها قطّ من قبل ؛ ولكني حينما تذكرت أن زمن إلحاق الضرر بالشيخية في المال والعرض والنفس ـ من أجل البطش بهم ـ قد أخمدت نارها العلنية[١].

فما يفصلنا عن أول واقعة كُفِّرَ فيها رئيسها (الشيخ الأوحد) من قِبل الملا محمد تقي البرغاني ، الذي جعل مسألة المعاد الجسماني ذريعة وركيزة لمحاربة وتكفير الشيخ الأوحد قدس سره ؛ فانفتح على أثر ذلك الطريق للحساد ليكيلوا له الحيل المهلكة ، ومنها نقلهم حكاية ديك الجن إلى الوالي العثماني داوود باشا ببغداد بقصد إيذاء الشيخ

---

(١) دليل المتحيرين ـ السيد كاظم الرشتي : ص٨٥.

الأوحد قدس سره، والتي على أثرها ارتحل من العراق إلى الحجاز لتقبض روحه في منطقة هدية[١].

وعن الأحداث المؤلمة التي قاساها تلميذه (السيد كاظم الرشتي) بعد وفاة أستاذه من قِبل المعارضين والحاقدين عليهما؛ كأخذ عمامته من رأسه في حضرة الإمام الحسين عليه السلام مرتين: مرة في يوم الجمعة من الركعة الثانية من صلاة الظهر، ومرة في الركعة الثانية من صلاة الفجر، وكمحاولات قتله[٢] التي انتهت بسمّه بالقهوة على يد والي بغداد نجيب باشا[٣]؛ أكثر من قرنين.

وإنّنا الآن في زمن الحرية الشخصية، زمن الانفصام الشخصي إن صح التعبير! فمن السهل أن يكون للإنسان معتقداً في لحظة، ويكون له غيره - وإن كان متعاكساً مع ذلك - في لحظة أخرى.

فله مثلاً أن يعتنق الإسلام اليوم، وحينما تتضارب أفكاره مع رغباته النفسانية الدنيوية لن يتكلف غداً بعناء البحث أو حتى

(١) أعيان الشيعة - الأميني: ج٨ص٣٩٠. نزهة الأفكار - العلامة ميرزا غلام حسين التبريزي: ص٥٠.

(٢) دليل المتحيرين - السيد كاظم الرشتي: ص٨٦.

(٣) الشيخية - الطالقاني: ص١٦١. صحيفة الأبرار - الممقاني: المقدمة ج١ ص٢.

السؤال، مجرد تحليل عقلي بسيط بإمكانه أن يزيح مجموع ما يحمله من القيم الدينية ويحيلها إلى رماد في ثانية، ومن ثم يستبدلها بما يناسبه من معتقدات في الأوساط، وإن لم تكن علمية.

فالعنوان لم يَعُدْ شيئاً هاماً ما دام المعنى متوافقاً مع ما يريده في أساسه؛ فبالأمس هو مسلم، واليوم هو علماني، وغداً هو ملحد، وبعده هو مسيحي أو يهودي.. والدستور السماوي قد بات قابلاً للطي، وقابلاً للتصحيح، وقابلاً للإنكار والنفي حتى بتوافه الأشياء من قِبل البعض.

ما زال هناك اضطراب قلق في داخلي يدفعني نحو الإجابة بـ (لا)؛ غير أن حسن النية قادني نحو الالتفات يميناً ويساراً، لأتأكد أولاً أن لا أحد يستطيع سماع ما سأقول.

انحنيت إلى الأمام، وخفضت صوتي حتى كاد أن يصبح همساً، وأن أمثل بقدر ما يستطيع أن يمثل إنسان يوشك أن يموت، وقلت: "نعم. أنا شيخي".

٣٢

لم أكد أنهي عبارتي حتى فتح الرجل عينيه، وأدار رأسه لجانبه الأيسر، وغمز بعينه اليمنى، ثم أعاده ونظر إليّ بارتياب من أعلى إلى أسفل بعين حذرة متكتمة، وكأنها لم تكن تتوقع مني ما يسرّ.

تبادلنا النظرات المؤثرة قبل أن يقبل رجلان ممن كنت أراهم ـ أيضاً ـ جالسين يومياً يقرؤون في تلك الصحف المكدسة نحونا مسرعين؛ ليقفوا بجانبه، ويتبادلوا معه النظرات المتواطئة التي مفادها أن أنهض وأرافقهم بهدوء.

"من أنتم؟"، قلتها وأنا أنظر إلى رؤوس الأسلحة التي قد أبانوها خلسة من تحت معاطفهم لإرسال إشارة لي بجدية الموقف.

فأجاب أحدهم: "ستعلم عما قريب".

تحلّق مجموعة من الزبائن حولنا، ولما حاول نادل المقهى التدخل صرخ أحدهم في وجهه، ونهره بألا يحشر نفسه في المسائل التي لا تخصه.

"اللعنة.. هل ارتكبت حماقة لا يمكن تصورها؟"، "ومن عساهم أن يكون هؤلاء؟"، قلت لنفسي وأسناني تصطك، ويداي ترتجفان في اعتقادٍ مني بأنهم من رجال الدولة؛ فمن عادة الناس

البسطاء في مدينتي إذا رغب أحد في استجوابهم أن يذهب بهم الظن إلى ذلك.

استسلمت بعدها لِما خبأته لي الأقدار القاتمة بعض الشيء، فنهضت حينما أحسست بأن نهاية الجلوس ستكون أكثر ألماً مما هو آتِ. ولعلّ هذا ما أملاه عليَّ منطق حكمة التصرف في تلك اللحظة.

وفي اللحظة التي اقتادوني فيها علمت بأن ثانية اعترافي بأني إنسانٌ شيخي هي من ستضيف حقبة فريدة من نوعها في حياتي، تتقارع فيها أغوار من العاطفة على نحو غير متوقع؛ ليتسع العالم بعدها تاركاً للروح المجال لكي تتسع هي الأخرى، فتتمدد كيفما تشاء بنشوة في العوالم النائية القادمة.

هكذا أحسست بسعة فجوة الثانية التي فَتحتُ فوهتها بالنار.

ومن دون أدنى علامة انفعال ركبت معهم في سيارتهم السوداء، وأنا أتساءل حتى الآن:

"من هؤلاء؟ وماذا يريدون؟ وإلى أين سنذهب؟".

ولم يحدث فيها أي شيء غير أن أحدهم نظر إليّ نظرة تفحص صارمة قبل أن نتحرك، وغطى وجهي بكيس مصنوع من القماش الأسود الخفيف، ليكون بعدها صوت تحرك السيارة هو كل ما أدركه عن وجهتي القادمة!

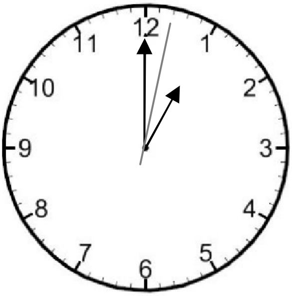

الثانية الثانية

...

إنها الثانية التي أطلق عليها بثانية التجلي الأصدق لصور شخصياتنا بضراوة نحو الخارج.

فهل حدث معك في ذات مرة؟

أن كنت في موقف انعطف فيه مسار ثانية تجلي ما كان في داخلك نحو ناحية جعلك تستشف النظرة السيئة التي اعتقدها عنك من حولك ؛ فأخذت تصرخ : "لم تفهموا كلامي".

عليك أن تطمئن ؛ فهناك نوع من البشر لا يريدون أن يفهموا إلا ما يفهموا ، ومهما حاولت القيام من إصلاح فإن العطب ليس منك ؛ بل هو من تعصبهم نحو ما يخالف نقطة فكرهم لا غير.

فقط خبث النوايا الممزوجة بالأحداث الأشدّ إيلاماً في القدر المتهكم على الدوام مع غريزة الموقف هما وحدهما من يساهمان في فسح المجال لحكم الغير كما يحلو له في قناعات شخصياتنا، أو في صميم كياننا إذا جاز التعبير؛ فيرفع ما يلائمه مما كُشف له من تجلي صور ذواتنا عالياً نحو قباب السماء، ويخفض ما يسخطه - وإن كان حقاً - إلى أسفل سرادقات الظلام.

فنحن إما ملائكة، أو شياطين لا بُدّ من تصفيدها بالأغلال أمام نظرة حكم هذا الصنف من البشر!

لم يدم جلوسي على ذلك الكرسي الخشبي إلا ثانية سرعان ما اقترفت خطأً شنيعاً آخر، جعل من دراما الأحداث تقوض بكوارث حممها البركانية بلا هوادة على عالمي.

"هل تقرّ بأنك شيخي؟"، قالها نفس ذلك الرجل الغريب الذي سألني في المرة الأولى بعدما رفع قطعة القماش من على وجهي، وهو يتصفح الكتاب الذي عليه اسم الشيخ الأوحد ﷶ صفحة تلو صفحة.

كنت في غرفة شبه مظلمة، لا يوجد فيها إلا مصباح واحد أصفر اللون، وطاولة مستطيلة أجلسوني على كرسي منها، وجلس مجموعة من الرجال أمامي، بينما ظل الآخرون وقوفاً على أقدامهم متحولقين حولنا.

لوهلة شعرت بحاجة ماسة إلى إعادة السؤال: "من أنتم؟".

فلا المكان ولا مظهر اللباس أوحيا لي بأنهم من صنف المسؤولين كرجال الدولة مثلاً.

كنت على وشك التمتمة بذلك إلا أن الصفعة العنيفة التي وجهها لي ذلك الرجل بالكتاب فوق رأسي؛ جعلتني أتبنى فكرة الموقف المرعبة أكثر من أي شيء آخر.

رماني أحد الواقفين بنظرة ـ ويا لها من نظرة ـ ظافرة، مستاءة، ساخرة، ومتعالية، قبل أن يتقدم مني ببطء، ويتكئ على الطاولة بيد وهو منحن إلى الأمام، ويحدق في عيني في محاولة منه للكشف عن ردة فعل لي.

فلما لم يجد إلا الصمت المطبق بصق في وجهي، وضحك ضحكة مقتضبة ثم قال برطانة حادة: "أنتم جماعة الشيخية كالسوس المتوغل في السن لا نستطيع علاجه إلا بالخلع؛ وحينما نخلعه لا تلبثون مدة حتى تجتاحون سناً آخر بسوس أفكاركم الضالة".

اغتظت من ذلك قليلاً، فكسرت حاجز الصمت وأجبته بنبرة تشي بالسخرية: "لو كان السِّنُّ سليماً لما اجتاحه السوس؛ ولكن

لعلّ بنية خلقته لم تكن على ما يرام، فكان من الأجدر أن يحيل عليه القدر ذلك للتخلص منه للأبد".

تحركت جوزة حلقه بشكل غريب كأنما ابتلع كلمة بذيئة وقال: "يا لجرأتك!".

ثم أضاف: "دعنا من ذلك، وأجب على أسئلتنا بدقة متناهية؛ لأن مصير ما هو قادم مربوط بكل كلمة تقولها".

"ما اسمك؟"

"عبد علي"، أجبته بصوت خفيض جداً، وأنا أكفكف عبرتين أو ثلاث عبرات كانت تترقرق في عيني منذ البداية ولم أستطع حبسها أكثر من ذلك؛ فمهما كنا نمتلك من صلابة فإن حدة المواقف التي نمر بها لها دورٌ هام في الإمساك بزمام الأمور، وفي محاولة إخراج ما يحطمنا بالداخل وإن كنا نأبى عدم ذلك.

عندئذٍ صاح أحد الجالسين: "صه! هل أنت أبله؟".

وصاح الرجل الذي بجانبه: "قلت لكم بأنه شيخي. أما ترون أن الغلوّ قد دبّ في كل شيء في معتقده حتى طال اسمه!".

"ليس في ذلك أيّ غلوّ"، قلتها والدموع بدأت تجري من عيني بغزارة هذه المرة.

ثم أضفت: "إنه من البداهة أن نُطلق على العبد الذي بيد مولاه أمره كله؛ من حرية، ورزق، وغير ذلك، إنه عبد فلان.

فيقال لك لو سألت عن اسمه: هذا عبد علي، أو عبد محمد، أو عبد حسن؛ فهو عبدٌ لمولاه من ناحية وجوب الطاعة عليه، ومن ناحية إنه وما يملك لمولاه.

ونحن أولاً وآخراً عبيد طاعة وعبيد رق لله عزّ وجلّ، وأيضاً لأهل البيت عليهم السلام!

أما عبيد طاعة؛ فهو مما لا شك فيه لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[(١)].

وأما عبيد رق؛ فسواء صُرح بذلك كما في زيارة الإمام الحسين عليه السلام: «عبدك وابن عبدك، وابن أمتك المقر بالرق، والتارك للخلاف عليكم»[(٢)].

---

(١) سورة النساء: (٥٩).

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٨ ص١٩٩ ب١٨/زيارته صلوات الله عليه المطلقة.

أو لم يصرح به إما مراعاة لمقام الناس في بداية الإسلام لاستمالة قلوبهم، حيث إنّ البعض إذا دُعي إلى الإسلام وأمر بطاعتهم عليهم السلام ليكون من إخوانهم رفض ذلك، فما بالك لو قيل له: إذا أسلمت ستكون من عبيدهم.

وإما للتقية، فقد كان خلفاء الجور يكرهون من يسمي نفسه بأسمائهم عليهم السلام؛ فما بالك من يسمي نفسه بعبوديتهم.

وإما لضعف التشيع في الزمن السابق، فلم يكن للكثير معرفة إيمانية بمقام الإمام عليه السلام.

وإما بسبب كثرة الغلاة في تلك الفترات، مما أدى إلى اختلاط المعنى المراد، فجاء الإنكار من باب الحمل على الغلو.

إلا أن ما يفهم من مضمون العديد من الروايات هو ذلك؛ كما في قول أمير المؤمنين عليه السلام: «نحن صنائع ربنا، والخلق بعد صنائع لنا»[1].

وكما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «رحم الله شيعتنا أنهم أوذوا فينا ولم نُؤذَ فيهم، شيعتنا منا قد خُلِقوا من فاضل

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٣٣ ص٥٨ ح٨.

طينتنا وعُجِنُوا بنور ولايتنا، رضُوا بنا أئمة ورضينا بهم شيعة، يصيبهم مصابنا وتبكيهم أوصابنا، ويحزنهم حزننا ويسرّهم سرورنا، ونحن أيضاً نتألمَ لتألمهم ونطلع على أحوالهم فهم معنا لا يفارقونا ولا نفارقهم؛ لأن مرجع العبد إلى سيِّده ومعوّله على مولاه»(١).

شحبت وجوه الجميع من سماع هذا الكلام شحوباً شديداً، وما زالوا يحدقون في عيني بدهشة مشدودة طوال بضع ثوان.

شلت أطرافي خوفاً وفزعاً؛ خصوصاً حينما صاح أحدهم: "ماذا؟!"

أعقبها تسديد ضربة عنيفة أخرى بيده لوجهي، ثم قال: "هذا الشاب سوف يموت شنقاً. أنا على مثل اليقين من أن هذا الشيخي المغالي سوف يموت شنقاً".

لم يجادل أحدٌ في رأيه، ودارت نظرات حارة ثم قال أحدهم: "من أين أنت؟".

فأجبته بصوت واهن: "أنا من المطيرفي".

---

(١) الشيعة في أحاديث الفريقين ـ السيد مرتضى الأبطحي: ص٥١٤ ح١٦.

"المطيرفي!

أليست هذه المنطقة التي ولد فيها شيخكم، الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي؟

حدثنا قليلاً عنه؟

نريد أن نسمع ذلك منك".

"قرية المطيرفي التي ولد وتربى فيها الشيخ أحمد بن زين الدين، بن الشيخ إبراهيم، بن صقر، بن إبراهيم، بن داغر، بن رمضان، بن راشد، بن دهيم، بن شمروخ آل صقر القرشي الأحسائي، في شهر رجب سنة (١١٦٦هـ)؛ هي من قرى مدينة الأحساء الشمالية.

ظهرت عليه علامات النبوغ منذ صغره؛ فحفظ القرآن الكريم وهو في سنّ الخامسة من العمر، ثم أرسله والده إلى قرية القرين عند الشيخ محمد بن الشيخ محسن القريني؛ ليقرأ عليه العوامل والآجرومية.

وهو من أولئك العارفين الذين كانوا يكثرون من التفكر في العالم، ويحبون العزلة. فقد كان يبكي إذا مر على الجدران المهدمة

والأماكن الخربة، ويتساءل: أين ذهب سكانها؟، ويختلي كثيراً بنفسه منذ أوائل عمره؛ فجرت له رؤى عديدة في المنام منها:

أنه رأى جميع الناس صاعدين على السطوح يتطلعون لشيء؛ فصعد هو أيضاً إلى سطح بيتهم، فرأى شيئاً ما بين المغرب والجنوب معلقاً بالسماء، مقبلاً إليه وإليهم.

فلما وصل قبض أسفل ما منه بيده، ولم يصل إلى أحد من المتطلعين إليه غيره، هو شيء لطيف لا تدركه حاسة اللمس بالجسم إلا بالبصر، أبيض بلوري يكاد يخفى من شدة لطافته على شاكلة حلق منسوجة كهيئة نسج الدرع.

ومنها: أنه رأى الأئمة عليهم السلام ..."(١)، عند هذه العبارة اشتد غضب أحد الواقفين حنقاً؛ فوجه رأس مسدسه الصغير نحو رأسي وقال: "هل تريد أن أضع رصاصة في رأسك على الفور لننتهي من خرافاتك؟

تحدث عن أشياء معقولة! رأى الأئمة؟!".

---

(١) سيرة الشيخ أحمد الأحسائي - د. حسين محفوظ: ص١٣. سيرة الشيخ أحمد الأحسائي - إعداد الشيخ توفيق البوعلي: ص٩٥.

تجمد جسمي مثل تمثال صلب، أعادت مشاعره تلك اللكمة التي وجهها على وجهي بعدما أبعد فوهة مسدسه. لعلّ وجهي ورأسي قد طفقا يعتادان على كمية تلك الضربات واللكمات؛ فلم أعد أشعر إلا بالتورم بعد كل ضربة ولكمة.

ثم تابعت: "لقد قلت: إنه رأى في المنام وليس في اليقظة، وهذه الرؤية هي من الرؤى الحسنة التي وردت في الكتاب والسنة بعضها. فقد قال الرسول ﷺ - في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[1] -: «هي الرؤية الحسنة، يرى المؤمن فيبشر بها في دنياه»[2].

وقال ﷺ: «انقطع الوحي وبقي المبشرات؛ ألا وهي نوم الصالحين والصالحات»[3].

وقال ﷺ: «من رآني في منامه فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي، ولا في صورة أحد من أوصيائي، ولا في صورة

(١) سورة يونس - الآية: (٦٤).

(٢) الكافي - الشيخ الكليني: ج٨/حديث الأحلام والحجة على أهل ذلك الزمان ص٩٠ ح٦٠.

(٣) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج٥٨ ب٤٤/حقيقة الرؤيا وتعبيرها... ص١٧٦ ح٣٧.

أحد من شيعتهم، وإن الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزءاً من النبوة»[١].

ولم يعترض العلماء العظماء الذين أجازوه ـ حينما بلغ العشرين من عمره وسافر من الأحساء إلى العراق ـ على هذه الدعوة؛ بل صرحوا بأنه كان من عرفاء الشيعة الإمامية وحكمائهم، الذين يشهد لهم بحسن الطريقة"[٢].

توقفت قليلاً لألتقط أنفاسي فقال أحدهم: "أكمل لماذا توقفت؟".

"لما توفي في يوم الأحد (٢٢) من ذي القعدة عام (١٢٤١هـ) في منطقة تسمى (هدية) بين المدينة المنورة ومكة المكرمة، ونقل جثمانه إلى المدينة المنورة، ودفن في البقيع خلف الحائط الذي فيه أئمة البقيع عليهم السلام[٣]ـ، وانتشرت كتبه ورسائله؛ اختلف الناس فيه بين قائل بزهده، وقائل بكفره، فشهد له العلماء آنذاك كالشيخ محمد

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٥٨ ب٤٤/حقيقة الرؤيا وتعبيرها... ص١٧٦ ح٣٦.

(٢) روضات الجنات ـ الخوانساري: ج١ ص٩٧.

(٣) الدين بين السائل والمجيب ـ الميرزا حسن الأحقاقي: ج١ ص١١٠.

حسين كاشف الغطاء بأنه كان من (أكابر علماء الأمامية وعرفائهم، وكان على غاية من الورع والزهد، والاجتهاد في العبادة)[١]".

كان عليَّ أن أفكر لحظة قبل أن أتابع كلامي ذلك؛ فقد اشتط جميعهم غضباً بعده، وتحولت الغرفة إلى ساحة معركة؛ ليس لأن واحداً منهم قد رضا بما قلت، بل لأنهم جميعاً كانوا يتعاركون على كيفية قتلي!

"لا جدوى من إكمال الحديث معه، إن ما يقوله يخالف ما سمعناه وآنسناه من أفكار عن الشيخ الأوحد؛ دعونا نضع رصاصة في رأسه وننتهي منه"، قالها أحدهم وهو يمسّد شاربيه الكثيفين بسبابته وإبهامه.

"حرام إهدار الرصاصة في رأس؛ دعونا نمثل بجسده بما لدينا من سكاكين. كل واحد منا يقطع من جسمه قطعة حتى تنفق روحه"، قالها آخر وهو ينقر بسكينه على الطاولة.

(١) الآيات البينات ـ الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: ص١١١.

لثانية أحسست بشيء من العطف على ما كانوا يحملونه من جهل مركب ؛ فهم يجهلون الحقيقة، وحينما يتلقونها يصرون على التمسك بمعتقد جهلهم.

فمن جهة، قد لا ألوم البعض على ذلك ؛ خصوصاً حينما يكون ما نريد زحزحته هو الأفكار العميقة في داخلهم.

أعني تلك المقدسة منها التي ألفوا عليها، وكونوا من قواعدها صروح شخصياتهم ؛ فجاء كل ما يخالفها إسقاطاً لقيمهم الشخصية أكثر من أي شيء آخر.

فقد يتسامح البعض في نقد مظهره، أو لباسه، أو أسلوب حياته ؛ ولكنه من الصعب أن يتسامح في نقد معتقده.

ومن جهة أخرى، فإني ألومهم حينما يجعلون الإصرار هو من يوجه دفة مشاعرهم نحو التمسك بجهلهم، وإن ظهرت لهم الحقيقة بألف غطاء وغطاء.

ولثانية أخرى بدا ما يجول أمامي أنه مجرد تمثيل يحاولون منه شنّ حرب نفسية على عقلي لا غير.

ولكن الثانية التي تمسكت بها من جملة الثواني التي كانت تعبر على مخيلتي كالطيف، هي التي أيقنت حين مرروها بأن اللحظة التي يجب فيها تلاوة تشهدي قد حانت.

فأغمضت عينيّ، ووضعت رأسي على الطاولة بإعياء شديد، وبدل من أن أتمتم بكلمات الشهادة، أو أزيد من حدة إجهاشي بالبكاء؛ اعتلى على وجهي بسمة غريبة!

هكذا فقط بدأت أبتسم لهم حينما رفعت رأسي.

فقد أحسست بأني الآن صرت مستعداً لتلقي القدر كيفما شاء، بمرّه وحلوه، وهذا الإحساس هو من فتح باب الاعتراف بما يجيش في صدري من دون خوف.

"أيها الشيخي الكافر! ماذا بك؟"، صاح أحدهم وهو يوجه لكمة أخرى على وجهي.

ثم أضاف: "نحن نتعارك على أمر قتلك، وأنت تبتسم!".

فقلت: "أما إنني شيخي كما تطلقون علينا تنابزاً بالألقاب لمحبتنا وتكريمنا للشيخ الأوحد قدس سره فأنا أقر لكم الآن بذلك بسلامة جميع جوارحي.

وأما أنني كافر؛ فأنّى لكم بالحكم على كفري!

هل خالفتكم في أصل من أصول الدين، أم في فرع من فروعه؟

هل أنكرت ضرورة، أو جئت ببدعة فيه؟

انظروا ماذا يقول السيد كاظم الرشتي قدس سره للسائل الذي أراد تمييز طريق الشيخية عن غيرهم:

(وأما جعلكم الإخباري والأصولي فريقين من الفرق الثلاث والسبعين، وجعل طريقتنا ممتازة عنهما لتكون فرقة ثالثة فغير صحيح.

كيف!

وقد حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الكل بالنار والهلاك والكفر إلا فرقة واحدة منهم، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم اتفاقاً من المسلمين: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فرقة في الجنة والباقون كلهم في النار».

وكيف يمكن أن نجعل الأخباري أو الأصولي من هذه الفرق المختلفة التي نجاة أحديهما مستلزمة لهلاك الأخرى، مع أن ربهم

واحد، ونبيهم واحد، وكتابهم واحد، وقبلتهم واحدة، وأئمتهم واحدة، هم الأئمة الاثني عشر عليهم السلام ، وكذا سائر أعمالهم وعباداتهم.

ولم يخالف الأخباري ولا الأصولي شيئاً يخالف إجماع المسلمين ليكفروا، أو إجماع الفرقة الاثني عشرية ليخرجوا عن مسلكهم. وبعض الاختلافات الواقعة فيهم لا يخرجهم عن وحدتهم، بل كلهم فرقة ناجية واحدة من فرقة الشيعة الاثني عشرية...

وأما طريقتنا في استنباط الأحكام الإلهية؛ فهي كما اختاره الأصوليون من الاستدلال بالأدلة الأربعة من الكتاب والسنة والإجماع ودليل العقل والشهرة والاستصحاب وأصالة البراءة، وأمثالها من الأدلة والأحوال؛ إلا أن في كل واحد من هذه الأمور لنا أدلة من الحكمة تحتار عندها العقول، وتذهل لديها النفوس؛ فمن وصل إليها فهي الرشد والهداية، ومن لم يصل إليها فهذه الطريقة التي عليها فقهاؤنا المجتهدون هي المعمول بها، وتلك

الطريقة لا تخالف ما ذكروا رحمهم الله تعالى، وبذلوا مجهودهم)[١].

وإن لم يكن كلام علماء المدرسة حجة عليكم فخذوا ما قاله ممن لم ينتسب إليها؛ كالعلامة الشيخ عبد المنعم الكاظمي، تلميذ السيد أبو القاسم الخوئي في كتابه "من كنت مولاه فهذا علي مولاه":

(أقول: لتخرس ألسنة الجهال الظالمين الذين ظلموا المرحوم الشيخ أحمد الأحسائي بالتجاسر عليه، فإن الله للظالمين بالمرصاد، وعلى أهل العلم والتقوى أن يكونوا دوماً في نصرة المظلوم، وإلا فإن الله سائلهم عن تقصيرهم يوم يأتي النداء: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُون﴾[٢])[٣].

إن الشيخية مسلمون يحبون أهل البيت عليهم السلام محبة صادقة، ويوالونهم ولاءً صحيحاً في منتهى الصراحة دون رياء أو محاباة،

---

(١) إحقاق الحق - الميرزا موسى الإحقاقي: ص٢٣٣-٢٣٤.

(٢) سورة الصافات: (٢٤).

(٣) من كنت مولاه فهذا علي مولاه - الكاظمي: ج١٠ ص٣٥٨.

ولا وجل ولا مداهنة؛ وهم من الإمامية الذين يعتقدون مثلنا بإمامة الأئمة الاثنى عشر عليهم السلام، ولهم أيادٍ بيضاء في نصرة الحق، وتعظيم شعائر الدين)[١].

مرت فترة من السكون.

سكون ملحوظ ثم همهم أحدهم وقال: "أو تحفظ الكلمات عن ظهر غيب أيضاً!".

فقلت: "لا تخف! ربّ ضارة نافعة. فما يحيله علينا أمثالكم من ادّعاءات جعلنا نَبرع في تفتيشِ المتون وحِفظها؛ حتى غدا صغيرنا جمرة لا تداس، وكبيرنا عالماً لا يقاس في ردها. وما لزوم الصمت ـ في الحالات الكثيرة ـ الذي يعتقده بعضكم أنه ضعف أو جبن من جانبنا إلا ترفعاً عن أسلوب الجدل، وركوناً إلى جهة الحكمة.

فالأرض قريبة منا تحت أقدامنا والكلّ يدوس عليها: أعلمنا وأجهلنا، كبيرنا وصغيرنا، رجالنا ونساؤنا.. ولكن السماء بعيدة المنال، ولا يتعلق بها إلا من كان فؤاده متطلعاً إلى الأعلى،

(١) من كنت مولاه فهذا علي مولاه ـ الكاظمي: ج٤ ص٣١٧.

ومشغولاً بإصلاح نفسه، وبالتفكر بما فيها من الآيات؛ لا مشغولاً في أي بقعة يجب أن تدوس نفسه الأمارة بالسوء على هذه الأرض".

اضطرب المكان بعد ذلك وكأني رميت بينهم قنبلة بعثرت جسد وحدتهم إلى أشلاء؛ فالتمتمات التي تهاوت منهم لم تكن تنذر بموقف الوحدة الذي كانوا يرمون إليه سابقاً.

"لا نفهم ماذا يقول لنا بالتفصيل؛ ولكني أشعر أن كلامه يلامس الفطرة. دعونا نتركه يذهب"، قال أحدهم.

"أظن أن التروي من صحة كلامه هو الأفضل، فقد يكون قد قال ما قال تقية"، قال آخر.

"لا أعتقد بكل ما قاله بتاتاً؛ دعونا نحضر له إنساناً يعرف كيف يتناقش معه"، قال آخر من الواقفين هذه المرة.

فقطع نزاعهم صوت أحدهم، وهو الذي كان الأكثر قسوة من بينهم: "على أي حال، سنرى ماذا يمكن أن نفعل به؟ خذوه الآن من هنا".

أعـادوا وضـع ذلـك الغطـاء علـى وجهـي ، ثـم وكـز أحـدهم الكرسي بقدمه لأسقط كالكوة من فوقه نحو الأرض.

في هذه المرة لم يقتادوني بهدوء كما كان سابقاً ؛ بـل سـحبوني من قدمي.

فلم يكن الصوت الذي أسمعه هو صوت تحرك السيارة ؛ بـل كان صوت رأسي وهـو يـرتطم بـالأرض صـعوداً ونـزولاً ، متسـائلاً بعد كل رطمة ما إذا كنا قد وصلنا إلى وجهتنا القادمة.

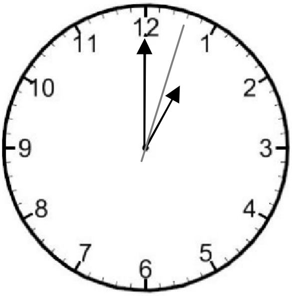

الثانية الثالثة

⁝

إنها الثانية التي يومض بريقها لك في أحلك الظروف؛ فتجعلك تبتسم أحياناً وإن كان الموقف لا يستدعي ذلك.

فهل حدث معك في ذات مرة؟

أن كنت في موقف مؤلم جداً، وبدلاً من أن تعيش مشاعره المحزنة تتملكك ردة فعل معاكسة منشأها إما قناعة أو فكرة، فتجعلك تبتسم أو تضحك فقط، وكأنك تطبق المقولة المشهورة: (الضحك هو آخر مسمار في نعش الألم).

قد تعيش شدة الألم في موقف لا يكون بصيص الشعور بالفرح أو الأمل موجوداً فيه بتاتاً، فقط هو الحزن بجميع معانية من يتملك شخصيتك.

وفجأة، تتقمصك ثانية تأخذك ذبذبات شعورها المتقطع لنقطة معاكسة تماماً لما أنت فيه.

"أين أنا؟"، قلت لنفسي بعدما سمعت صوت الباب يغلق.

علّه كان باباً حديدياً صدئاً كما أوحى سماع صرير فتحه وغلقه بذلك.

لم يزيحوا من على وجهي الغطاء. أبقوني كما جاؤوا بي مغطى الرأس، واكتفوا فقط برشفي بجرعة من الماء من أسفله قبل أن يغادروا.

في هذه الأثناء لم أفعل شيئاً سوى لزوم الصمت في محاولة استجماع طاقتي الخفية في ذلك الفضاء الضيق، الذي أصبح من الصعب السيطرة على صخب مشاعره القاتلة.

فالعتمة المظلمة، وعدم التمكن من الحركة بسبب القيود التي أحاطت بكلتا يديّ ورجلي؛ جعلاني أستنجد القوى مع الاكتفاء بالصمت المطبق.

لم يدم ذلك سوى لحظة، غزا بعدها صوت الجوع الذي بدأت أحسّ بلسعاته في معدتي، وتحول إلى خواء يسمع صراخه العالم الذي كنت أحاول التعلق به (عالم الصمت)؛ ليعتق العالم المناقض له تماماً من سلاسله، ويفسح المجال لسماته الخاصة والمختلفة بربطي بثوان أخرى لها نفس الشعور؛ لكنها لم تكن ثوانيّ لصخب الأصوات الخارجية كصوت الجوع هذا؛ بل كانت ثوانيّ لفوضى عالم الأصوات الداخلية.

أغمضت عينيّ محاولاً أن أنسى الحاضر بالماضي. شعرت بحرارة الدم وهو يجري في شراييني، وبتسارع أنفاسي، وبذاك الإيقاع السريع الذي ينبض بقوة داخل جسدي وهو يحكم قبضته فجأة على جميع ثواني الجوع التي شعرت بها سابقاً.

وللوهلة الأولى، ها هو ذا يخطر طيف تلك الثانية التي شعرت فيها بجوع مماثل لما أنا فيه الآن على حافة هذه الهوة السحيقة من الأفكار السوداء الغامضة التي كانت تغلي في رأسي؛ إنها ثانية عودتي إلى الوطن بعد غياب كأنه لم يدم سوى لحظة!

فبجسد هزل حتى بانت عظامه كنت أتحسس صوت معدتي الخاوية، وأنا أضع أولى الخطوات خارجاً من المطار أجرّ ببطء حقيبة سفري المليئة بالكتب.

"أكاد لا أصدق أني عدت"، قلت لنفسي قبل أن أنصت إلى الضجيج العارم في شارع المطار.

أصوات محركات السيارات، أصوات البشر، طقطقة عجلات الحقائب فوق أرضية الرصيف ذي البلاطات الأسمنتية المكعبة. كل شيء كان مفعماً بالصراخ من حولي؛ حتى أنه قد طغى على صوت معدتي المتصاعد في ذلك الوقت.

غير أن أشعة الإنارة الصفراء الخافتة، وتوهجات النجوم، ونصف القمر الذي تكبد صفحة السماء؛ أطبق منظرهم بغشاوة على عينيّ وأذنيّ عن كل شيء لأقف متسمراً، وألقي نظرة سريعة من فوق الرصيف على المكان الذي غادرته قبل سنوات.

"ها أنت تعود"، قلت لنفسي ويدي تشد على مقبض حقيبتي بقوة، وقلبي يحاول القفز خارجاً من أقفاصه.

حاولت كبح جموح مشاعري، واستجماع طاقتي في اللحظة التي لم أحسب لها حساباً في يوم كهذا. ولما أحسست بدغدغة مشاعر الأنس في داخلي بلعت ريقي، زفرت، استنشقت الهواء الحار الرطب أولاً لأتأكد بأني فعلاً واقف على أرض الوطن، ثم عدت أدراجي للخلف نحو جدار المطار الزجاجي؛ لأستند عليه منتظراً السيارة التي ستقلني إلى منزلي.

كنت أرسم ابتسامة غبية على ثغري ـ كالبسمة التي أرسمها الآن وأنا مغطى الرأس، ومقيّد اليدين.. ـ قبل أن أهمس: "لم يتغير شيء تقريباً".

حينما شاهدت شابين يعتركان على موقفِ إنزال الحقائب من خلال أصوات أبواق سياراتهما، وامرأة أربعينية العمر توبخ ابنها بصوت مسموع أمام الملأ لأنه أوقع جهاز الآيباد الذي كان يحمله، ويحمل معه حقيبة مكياجها الكبيرة، ورجلاً عجوزاً يحاول أن يعقد صفقة تجارية لا تتجاوز الريالات مع عامل العربات لحمل حقائبه إلى داخل المطار.

قــررت أن أكــفّ عــن حماقــة النظــر إلى تصــرفات الآخــرين وأتقاسم جمال اللحظة مع نفسي فقط ؛ فأغمضت عينيّ وشدّتني ذاكرتي من دون سابق إنذار إلى ذلك اليوم الذي دخلت فيه من نفس باب هذا الجدار لأغادر وطني بعد عقبات عديدة نحو عالم آخر ؛ أبحث فيه عن بصيص أمل تحقيق طموح من طموحات الصغر، التي لم ينبت من جملة بذورها إلا بذرة واحدة فقط !

فتراءت لي ومضة تلك الطموحات المتعاقبة من دون فاصل بينها في أيام الطفولة، أشبه ما تكون بسلسلة حلقات متصلة تكاد لا تنتهي ؛ فما أن يقطع منها حلقة حتى تجثوا ومضة غيرها بطغيانها على مشاعري العفوية آنذاك.

لقد كنت طفلاً كغيري من الأطفال يحاول في كل يوم أن يصنع له طموحاً جديداً ليبرهن عن نظرته الشخصية في مسيرة الحياة. وكل طموح عنده كان بمثابة لعبة من ألعابه التي ينشدّ إليها بحماس شديد في بداية الأمر، ولا يتركها إلا مع قصة حزينة يروي جزءاً منها الأشلاء المحطمة من لعبته، ويروي جزءها الآخر إجابته المتلعثمة حينما يُوجّه إليه السؤال :

لماذا كسرت لعبتك؟

أو لماذا استبدلت طموحك؟

فيأتي الجواب للسائل من الجانب المهتم بصقل تجاربه الطفولية، والذي عليه ستتكون وستنمو منظومته الحياتية: لم أعد أرغب بذلك؟

ليس هدر المال الذي صُرف على تلك اللعبة، وسحقت أجزائها ثم رميت أمام فتحة باب المنزل ليتكسب عامل النظافة من حديدها أو مواد البلاستيك التي في داخلها هو الجانب المهم؛ بل إنّ الشرخ الذي أوقف حقل تجاربه هو ما يجب أن يأخذ بعين الاعتبار هنا؛ لأنه النقطة التي سيتوقف عليها شخوص شخصيته مستقبلاً.

فاللعبة قد يتلاشى ندم فقدانها ويعود ويقتني مثلها، ويكون مصيرها كمصير سابقتها؛ ولكن الطموح الذي تمناه إن قوبل بالسخرية بدل الجدية والاهتمام ستبقى خيوط قطرانه تتدلى من جذع نفسه، ولن يستطيع التملص من كمية النقاط السوداء القاتمة المنسكبة فوق صفحة طفولته إلا برحمة ربي.

فالثمن سيدفع غالياً بدراهم من التردد والخوف من خوض زمار مثل هذه الطموحات لاحقاً.

وكما هي رغبة اقتناء الطفل للعبة الناشئة من مكون الشهوة لعدم اشتداد ساق العقل بعد في تركيبته الخلقية ؛ كذلك هي طموحاتي الوردية الصغيرة، كان أغلب بداياتها منطلقة من ذلك المنشأ.

فطعم السمك المقرمش اللذيذ الذي تقدمه أمي بعد قليه في تلك المقلاة السوداء البالية، وتصل رائحته إلى باب المنزل الخارجي لتكون علامة على صنف الطعام لدى المار بجانبه ؛ جعلني في موقف عدم القدرة على تمالك نفسي أمام إصدار قرار من تلك القرارات الغير مدروسة، المتهورة، والعفوية بحكم سني، الناص على أنه : "لا بُدّ أن أكون صياداً ماهراً".

فبدأت بتدشينه إما بالرضا بسندوتش الجبن الذي كنت لا أرضى به عوضاً عن مال المصروف المدرسي، أو بالصبر على مرارة الجوع طيلة اليوم الدراسي ؛ لأشتري بعدها خيطاً وخطافاً مما جمعته من مال في علبة حليب أخي الصغير الفارغة، التي صنعت

في أعلاها فتحة صغيرة أرمي منها المال في كل صباح، وأهزها جيداً قبل أن أغادر لأتأكد بأنه قد استقر في أسفلها.

وبحكم أني ولدت وعشت في مدينة الأحساء، كانت صروف الري التي تعج بالقصب الأخضر الطويل، وبالضفادع البنية اللون، وبالأسماك الصغيرة المرقطة (عوم)؛ هي السبيل لديّ لتحويل فكرة هذا الطموح إلى واقع ملموس.

ففي كل يوم لما انتهي من الأعمال التي يوكلها إليَّ والدي في المزرعة أتسلل بأدوات الصيد مع فتات الخبز الأحمر المتبقية من وجبة الإفطار نحو الصرف القريب من مزرعتنا.

أختار بقعة صغيرة أولاً، ثم أصنع صنارة جيدة من إحدى تلك القصبات الباسقة، وأجلس بصمت منتظراً الصيد الوفير بعدما أرمي بالطعم في تلك المياه الضحلة المليئة بأنواع الحشائش، وبأصناف علب المشروبات الفارغة المرمية من قِبل المارة.

وهكذا تمرّ بي الأيام متسمراً بإرادة اصطياد سمكة كبيرة كالتي تقدّمها والدتي على وجبة الغداء؛ ولكن كثرة الضفادع التي ملأت بركة مزرعتنا من صيدي، وتوبيخ والدي المستمر: "لا تذهب

للاصطياد من الصرف قد تنزلق قدمك وتغرق"؛ جعلاني أقرر ترك هذا الطموح إلى الأبد.

"رحمك الله يا أبي"، قلتها بعدما انتهت صورة هذا الطموح، وتمتمت بقراءة سورة الفاتحة لروحه قبل أن ترسل تلك الثانية بطموح طفولي آخر.

قفز لي بعد ذلك طموح وظيفة رجل الأمن (الشرطي) التي كنت أحبها بشدة؛ غير أنه لم يكتب لها درجة من البلوغ أقصى مما بلغته فكرة الصيد.

القبض على اللصوص، واللباس المنظم، والسيارة البيضاء المخططة باللون الأزرق، وصفارتها المرعبة حينما تنطلق من فلم الكرتون الذي كنت أشاهده عصر كل يوم، خلفت شعوراً عجيباً في داخلي ذلك الوقت؛ فقررت أن أعيد منصوصة قرار الصيد وأستبدله بقرار رجل الدولة.

كنت أتمنى بشدة أن تكون لي مساهمة فعالة في خفض نسبة الجريمة في البلاد، وتحقيق معاني العدالة، وإرساء الأمان بالمعنى المنوط به؛ ولكن حينما كانت والدتي تهددني بأخذي إلى الشرطة

في كل مرة أرتكب فيها خطأً ما: "سأتصل على الشرطة لتسجنك على فعلك السيئ"، وكان والدي يهددني بذلك أيضاً حينما أفطر بقصد أو بدون قصد في شهر رمضان: "في يوم العيد تأخذ الشرطة كل الأطفال الذين أفطروا، ويزجون بهم في السجن لمدة عام"؛ جاء كرهي لهذا الطموح شيئاً بسيطاً مقارنة بالعقدة التي تكونت لديّ.

فقد كنت أختبئ خلف أيّ شيء حينما تعبر سيارة الشرطة بجانبي في الطريق، وما زالت هذه العقدة متسمرة بمسمارها الصلب في داخلي إلى أن كبرت؛ فحتى الآن لا أجرؤ على تجاوز سيارة الشرطة حينما أشاهدها وأنا أقود سيارتي، أحاول أن أترك مسافة بعيدة بيننا، وأبقى خلفها متربصاً أي فرصة متاحة للهرب؛ بل إني أحياناً أركن في أي موقف قريب حتى تغيب عن ناظري!

حاولت أن أطلق ابتسامة أكبر من ابتسامة تذكري لطموحي الأول، غير أن أثر خوفي من سيارة الشرطة الذي بدا واضحاً من تسارع دقات قلبي ما زال يقبع في ثنايا الذات؛ فاكتفيت بطي صفحة هذا الجزء من ذاكرتي سريعاً، واستقبال ومضة الجزء الذي

جعلني أغادر وطني، والذي أوصلني لهذه الثانية التي أجلس فيها الآن، وأنا مغطى الرأس.

تراءت لي بعد ذلك تلك الثانية التي رأيت فيها أحد أصدقائي في المدرسة، وهو يتجاوزني مسرعاً بدراجته وأنا ألعب بالشارع؛ ليدخل من باب منزل شُرعت فتحتاه على آخر درجة منهما، وأُطفئ مصباح سوره، ورشت عتبة بابه بقليلاً من الماء.

أخذني الفضول لاكتشاف ما يوجد خلف ذلك الباب الضخم الموحش؛ فأخفيت الكرة التي كنت ألعب بها خلف صندوق القمامة، ونفضت التراب من فوق ملابسي، ووقفت على الباب متأملاً فيه قبل الدخول.

طرقت الباب، فخيّل إليّ أن صوتاً ما بالداخل قد أجابني فدخلت.

غير أنني أخطأت السمع!

فما من أحد أذن لي بالدخول، ولم يكن الصوت الذي تخيلت سماعه سوى صوت ضجة لأطفال صغار في مثل عمري تقريباً.

كانوا مبعثرين في ساحة تلك القاعة الفسيحة قبل أن يصيح رجل ذو هيبة ووقار ـ ملأ الشيب لحيته ـ في أثناء دخولي : "لقد حان وقت الدرس".

انتظم بعد عبارته كل مجموعة من الأطفال في حلقة، وأخذ بعضهم يتهامس مع من كان بجانبه، واكتفى آخرون بتقليب الكتيبات الصغيرة التي كانت بأيديهم.

شعرت بحرج كبير من دخولي عن طريق الخطأ دون إذن، وحاولت الانسحاب بهدوء دون إثارة أيّ انتباه ؛ لكنني بقيت متسمراً حذو الباب ولم أستطع كبح فضولي في معرفة ما كان يدور داخل هذه القاعة.

تقدم نحوي ذلك الرجل، ابتسم في وجهي أولاً ورحب بي، ثم قال : "هل تريد حضور الدرس؟".

لم أستطع الحديث فأومأت له برأسي، وكأني أقول له : "نعم".

أمسك يدي برفق، وأخذني معه إلى حلقة درسه. فلما استقر بنا المثول جالسين ألقى التحية على الجميع بأسلوب هزلي فكاهي حماسي صرف ؛ ليجذب انتباه الجميع نحوه، ثم شرع في درسه.

وهكـذا عشـت أول صـدمة حقيقـة في حيـاتي وأنـا لم أتجـاوز التاسعة من العمر بعد ؛ فدقائق ذلك الـدرس كانـت كافيـة لتقـويض قصر أوهامي الضخم لأتنازل عن جميع رغبـاتي الصـغيرة في سـبيل كسب المزيد من شعور البهجة والنشوة، اللذين أخذاني نحو عـوالم نائية عن فكري رغم جهلي بموضوعه الرئيس.

كان أسلوبه الفكاهي في إيصال المعلومة هو ما جعلني مستسلماً استسلاماً كلياً في بادئ الأمر ؛ ولكن مضمون درسه الـذي أصـابني بـذهول تـام كمـا لـو أصـابني ضـرب مـن السـحر الأسـود ولم تمـضِ سوى دقائق قليلة من جلوسي ؛ هو أكثر شيء لفت انتباهي، وشـدّ مشاعري من أعماق جذورها.

"على ضوء مدرسة الشيخ الأوحد المستمدة أركانهـا مـن القـرآن والسنة والعقل المستنير بهما ؛ فإن الله عزّ وجلّ كان وما زال واحداً أحـداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً.."[١].

وليقنعنا أو يستدلّ لنا على دفق خطابه كـان يـأتي بأدلـة تناسـب مقام سِننا ؛ فيتلو سورة التوحيد الـتي كنـا جميعـاً نحفظهـا عـن ظهـر

(١) تفسير آية الكرسي - السيد كاظم الرشتي : ج١ ص١٨٤-١٨٥.

غيب، ويمثل لنا بالكهرباء التي لا نراها ولكننا نستطيع رؤية آثارها من حولنا.

كان يعصف بأذهاننا تارة: "إذا كان من المحال رؤية الله عزّ وجلّ أو تصوره، وفي نفس الوقت أن الحكمة من خلقه الخلق هو معرفته؛ فكيف يكون ذلك؟"، ثم يتركنا نعيش في حالة عارمة من الانتشاء في البحث عن الجواب.

وتارة أخرى يستمع لأجوبتنا مهما كانت فداحتها؛ فلا يرد منها جواباً أبداً، بل يُقوّم الخطأ برحابة صدر، ويثني على الصحيح منها بوضع علامة حمراء أمام اسم الطالب في سجله.

وإذا لم نتوصل إلى الإجابة كان لا يختم درسه حتى يجيب عن كل إشكال طرحه، أو تطرق له:

"لأنه ليس بإمكان أحد أن يرى الله عزّ وجلّ اقتضت حكمته خلق مخلوقات تكون لهم الواسطة الإلهية بينه وبيننا قبل خلق كل شيء؛ وهم النبي الأعظم محمد وآله ـ صلوات الله عليهم ـ"[١].

---

(١) شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٣ ص١٦٣ ـ ١٦٧.

لم أستطع استيعاب ما كان يجري أمامي، كانت حواسي تتسابق بعنف، ولأول مرة شعرت بأن كائناً بشرياً ما في هذا العالم استطاع فعلاً أن يحملني إلى عالم آخر.

أحسست أني أقف أمام كلمات شخصية خارقة (شخصية الشيخ الأوحد)، كان من الواجب والممتع الانحناء لها.

فبدأت أنهمك بشدة في طلب المزيد من معارفه الحكمية بالرغم من أنه كانت هناك حصص لمواد أخرى، ولنشاطات متنوعة؛ غير أن حكمته هي ما أشعرتني بموجة من الدماء المستعرة تتدفق بعنف إلى جسدي.

استمر بي الحال هكذا لسنوات، أنتقل من درس إلى آخر، ومن صفحة كتاب إلى صفحة كتاب آخر؛ حتى كبرت تلك المفاهيم الاعتقادية واتسعت.

فمثلاً: زيادة على اعتقاد أن الله عزوجل لا يمكن رؤيته أو تصوره؛ أدركت أنه لا اسم ولا رسم له، وأن الأسماء والصفات ما هي إلا ظهورات وتجليات مخلوقة يستدلّ بها عليه[1]. وزيادة على أنه خلق

---

(١) المخازن ـ الشيخ حسن كَوهر: ص٣٢ـ٣٣.

أهل البيت عليهم السلام ليكونوا واسطة الإمدادات والفيوضات ؛ أدركت أن لهم مقامات أربعة :

١ـ مقام البيان : وهو مقام الصفة التي ليس كمثلها شيء ، ومقام المقامات التي لا تعطيل لها في كل مكان.

٢ـ مقام المعاني : أنهم معاني صفات أفعاله تعالى ، من علمه وحكمه ويده وجنبه.

٣ـ مقام الأبواب : أنهم الواسطة الكلية بينه وبين مخلوقاته ، فلا ينزل شيء ولا يصعد شيء إلا منهم وبهم.

٤ـ مقام الإمامة : أنهم عباد مكرمون لهم خصوصيات ذاتية في خلقتهم ، وإن اقتضى ظهورهم في هذا العالم بطور البشرية(١) ؛ فلا يجري السهو عليهم بالمعنى المعروف عندنا ، ولا غير ذلك من الأمور المنافية لكمال عصمتهم(٢).

ولما بلغ بي الأمر في حكمته مبلغاً بانت منه الكليات ، طلبت السفر للاطلاع على حكمة غيره ؛ حتى تكتمل عندي مباني

---

(١) شرح الزيارة الجامعة "ضمن تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي : ج١ ص١٦٠ـ١٦١.

(٢) رسالة في جواب الملا محمد طاهر "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ الأحسائي : ج١٠ ص٣٦٣.

حكمته، والجوانب التي نبذ فيها ما كان مألوفاً من الفلسفات اليونانية، والمباحث الكلامية، والشطحات الصوفية وغيرها، وأرساها على كل ما جاؤوا به ـ صلوات الله عليهم ـ[(١)].

ما زلت أقلّب لحظات تلك الومضة في شعور غريب بالاسترخاء، كما لو كنت في رحلة طيران حالمة عبر السحاب. كنت أهتزّ وأرتجف قبل أن أسمع صرير الباب وهو يفتح، وباليد التي امتدت لترفع الغطاء من على وجهي بسرعة.

كان ذلك الرجل الغريب!

عاد هذه المرة وهو يحمل كيساً في يده. "علّه قليلٌ من الطعام"؛ قلت لنفسي وأنا أحدق إلى ذلك الكيس بتمعن.

ولكنه سرعان ما أردف قائلاً: "هل تعلم ماذا يوجد في هذا الكيس؟".

بتأنّ ومهل شديد أخرج شيئاً من ذلك الكيس وهو يرمقني بنظرة تشي بالانتقام؛ وبمجرد أن لاح لي بعض أجزاء ذلك الشيء أدركت حينها سبب كل ما يحدث لي الآن!

---

(١) سيرة الشيخ الأوحد بخط قلمه الشريف ـ الأحسائي: ص٤٥.

صفعني به بقوة على وجهي ثم قال: "تأمل فيه جيداً، سوف نعود بعد قليل لإكمال الحديث معك".

وبجوّ ثقيل خانق يجثم فوق حواسي المستنفرة المشدودة فيجعلها تبعث بموجات كهربائية إلى كامل جسدي؛ ألقيت بجسدي على الأرض لأحاول تأمل الأحداث القادمة التي ستستنزف الكثير من طاقتي.

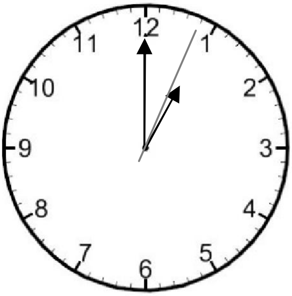

الثانية الرابعة

...

إنها ثانية امتحان قوة القناعة الشخصية، وعدم الرضوخ للظروف والمغريات والمسببات التي تودي بنا إلى فقدان أكرم وأعزّ شيء نملكه، وهو قيمنا الاعتقادية (الصحيحة منها طبعاً).

فهل حدث معك في ذات مرة؟

أن تخلّيت عن قيمة صحيحة من أجل لا شيء، فقط حكم الظروف المؤقتة هو ما جعلك تساوم على غيرها؛ كأن تحاول أن تكذب في سبيل كسب قوة الموقف لصالحك مثلاً، مع أن قيمة الصدق القابعة في ذات قناعاتك تعلم بأنها هي الأفضل.

إذا كنت تفعل ذلك دوماً فعليك أن تراجع نفسك؛ لأنه من دون القيم الصحيحة لن نكون إلا مجرد حيوانات تتسابق إلى إظهار أسوأ ما فيها!

يبقى للقيم والمعتقدات الصحيحة مكانة عند الإنسان يلجأ إليها في موازنة قراراته في أسوأ الظروف أو أجملها، وتبقى هناك ثانية مشدودة نتائجها بطرفين: طرف ممتد نحو التمسك بتلك القيم، وطرف ممتد نحو التخلي عنها.

أعـادوني مـرة أخـرى إلى ذلـك الكرسـي الخشـبي ؛ ولكـن هـذه المرة لم يزيحوا الغطاء من على رأسي، بـل أبقـوا علـى تلـك المسـافة المظلمة بيني وبينهم، واكتفوا بفك قيدي فقـط لأتحسـس مليًّـا بكلتـا يديّ ذلك الشيء الذي صفعني به ذلك الرجل سابقاً!

بعـد مضـي خمـس دقـائق مـن الحركـة المحمومـة سمعـت صـوتاً غريباً بينهم هذه المرة، لم يكن من جملة أصواتهم في المرة السـابقة. كان صوتاً رقيقـاً يشعرك بالاطمئنـان لوهلـة، يأسـر قلبـك، يجعلـك متسمراً لا تقوى على الحراك.

فسألني وصوته يقطر أدبـاً: "هـل تعـرف مـاذا يوجـد بـين يـديك الآن؟"، وذلـك بعـدما بسـمل وصـلى علـى الـنبي محمـد وآلـه قبـل السؤال.

أجبته بصوت مبحوح: "بالطبع نعم. إنه كتاب!

كتبته قبل مدة أشرح فيه ما قاله الشيخ الأوحد قدس سره في مسألة التفويض للأئمة عليهم السلام، ووجوب الاعتقاد بذلك؛ لأنها من جملة المقامات النورانية التي منحهم الله عز وجل إياها".

"وهل يمكن أن تبين لنا بإيجاز ماذا قلت فيه؟".

كان لديّ جوابٌ جاهز لكل سؤال أو اعتراض محتمل قد يثيره؛ غير أني في بادئ الأمر اندفعت قائلاً: "لا بأس؛ ولكن لماذا لا ترفعوا الغطاء عني ليكون التواصل أكثر فاعلية بيننا".

نهرني أحد الموجودين بوخز شيء مدبب قوي في كتفي من الخلف كأنه رأس سلاح، وهو يقول:

"ماذا قلت؟

عليك أن تجيب من دون طلب أي شيء".

حتى الآن لا أعلم لماذا حينما يريد أحد الإشكال على مسألة من مسائل الشيخ الأوحد قدس سره فإنه لا يحاول إبقاء نفسه متخفياً خلف ضوضاء المغالطات فحسب؛ بل يحاول أن يبقى غائباً عن الأنظار أيضاً، فيستعين بالعوام وغيرهم من وسائل لكي يبقى

حصيناً في منطقته ؛ ألا يكون من الأجدر أن يترافع بنفس شخصيته لنصرة ما يدعيه من حق؟ !

على أي حال، إن أمثال هذه المشكلة الكئيبة المظلمة دائماً ما تنبض في غير وضوح خلف جميع القضايا الكبرى في الحياة، وتختفي وراء ستار كثيف من الأقنعة.

فبات من المأنوس على مرّ الزمن قلة رؤية المواجهات الحقيقية المبنية على النقد العلمي وأركانه، وكثرة رؤية الهجمات العارية والمجردة من كل رسميات وشكليات البلاغة المعروضة بشكل بارز في وضح النهار.

فما أنا في مواجهته الآن ليس هو المرة الأولى التي تُكسر فيها القارورة؛ وليس المرة الأولى التي لا يُعلم منها من هو القاضي، ومن سيقف عند الجلاد على المقصلة!

وعلى أي حال، قلت له: "بدون شك: إن الفاعل الحقيقي هو الله عز وجل وحده لا شريك معه في ملكه، فهو الخالق والرازق والمحيي والمميت؛ ولكنه جعل العالم عالم أسباب ومسببات من جهة،

ولعدم وجود الاتصال بينه وبين خلقه فوض أمره إلى أشرف مخلوقاته من جهة أخرى.

ولكن هذا التفويض ليس كتفويض الموكل للوكيل، أو المولى للعبد في فعل من الأفعال بالاعتزال؛ بل هو بالإذن، وبالمدد منه في كل آن.

فمثلاً: حينما تضع بذرة في الأرض وتسقيها وتنبت نبته ثم تحصدها، جميعنا يقول: بأن من زرعها وسقاها وحصدها هو أنت. وأن زراعتك لهذه البذرة هو خلقٌ لها، وسقيها بالماء هو رزقٌ لها، وحصادها هو إماتةٌ لها.

ولكن هل أنت حقيقة من خلقها ورزقها وأماتها؛ أم أن الله عزّ وجلّ هو من فعل ذلك؟

الفاعل الحقيقي هو الله عزّ وجلّ، وما أنت إلا مجرد سبب تسبب في خلق النبتة، ورزقها... كذلك هو الأمر مع أهل البيت عليهم السلام؛ بغض النظر عن قابلية كل رتبة، فلا يسبقهم سابق، ولا يلحق برتبتهم لاحق.

فهيمنتهم وسلطنتهم على عالم التكوين والتشريع: كقدرتهم على الخلق والرزق والإحياء والإماتة ما هو إلا من باب المجاز، وإلا فالفاعل الحقيقي هو الله عزّ وجلّ؛ ولكن بما أن الله عزّ وجلّ لا يباشر خلقه بأي وجه من الوجوه جعلهم عليهم السلام وسائط في إظهار قدرته، كما جعلك واسطة وسبب في خلق تلك النبتة[١].

فجاء الخطاب لك في قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُون﴾[٢]، وجاء الخطاب لهم في قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون﴾[٣].

وهو أمر لا يستكثر على أهل البيت عليهم السلام لأنه قد منح لمن هو أقل منهم رتبة في السلسلة الطولية ذلك؛ كالأنبياء والصالحين.

فقد قال تعالى في نبيه عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ

(١) نجاة الهالكين ـ الشيخ محمد بن أبي خمسين الأحسائي: ص٢٦٧.

(٢) سورة الواقعة: (٦٤).

(٣) سورة الأنبياء: (٢٧).

وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[١].

وقال حكاية عن ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾[٢].

فإذا كنا نجزم بالسن القاطع بحتمية هذا الأمر للأنبياء والصالحين؛ فمن باب أولى أن يكون لهم عليهم السلام؛ لأنهم - أي الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقات - مخلوقون من شعاعهم؛ بل إنّ ذلك لا يجري لأحد منهم إلا بالمدد منهم عليهم السلام".

ساد عندئذ صمت غريب أحسست منه بأني قد رسمت على وجوههم علامات الرضا والامتنان، ونوع ما أراح ذلك عقلي المشوش والمضطرب، فقلت في نفسي: "يستحيل عليّ أن أفكر في شيء آخر غير الحرية الآن، فالأمل يشع من هذا الصمت كما يشع ضوء النهار من قرص الشمس الحارقة".

---

(١) سورة آل عمران - الآية: (٤٩).

(٢) سورة الكهف - الآية: (٨٤).

انتظرت نطق أحدهم لأيّ كلمة وأنا مطمئن، كما ينتظر محكوم سماع حكم الخلاص.

وفجأة، دوّى صدى صوت خفيف كصوت الأشباح: "هل لديك رواية على ما تقول؟".

علّه كان صوت أحدهم هامساً، وعلّه هاتفاً تخيلته؛ ولكني لم أتوانَ عن الإجابة بعد ذلك بتاتاً؛ بل قلت بصوت عالٍ كسر صمت المكان:

"نعم. لقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا أحيي وأميت بإذن ربّي، أنا أنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم بإذن ربّي، وأنا عالم بضمائر قلوبكم، والأئمّة من أولادي يعلمون ويفعلون هذا إذا أحبّوا وأرادوا لأنّا كلنّا واحد، أولنّا محمد وآخرنا محمد وأوسطنا محمد وكلنّا محمد. فلا تفرقوا بيننا، ونحن إذا شئنا شاء الله، وإذا كرهنا كره الله، الويل لمن أنكر فضلنا وخصوصيتنا وما أعطانا الله ربّنا؛ لأن من أنكر شيئاً مما أعطانا الله أنكر قدرة الله عزّ وجلّ ومشيّته فينا»[1]".

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج٢٦ ب١٣/نادر في معرفتهم صلوات الله عليهم بالنورانية ص٦ ح١.

وقبل أن أترك تعليلي على هذه الرواية تعالى صوت ذلك الرجل ـ ذي الصوت الرقيق ـ في أرجاء المكان فجأة؛ وكأنه صوت بناء ينهار، قائلاً: "إنها رواية ضعيفة السند؛ علّها تكون من المدسوس في التراث"، وهو يخبط على الطاولة بيده التي بدا لي صوتها وكأنه صوت مطرقة رئيس المحكمة حينما يهوي بها بقوة؛ ليشعر الآخرين بالانتباه، أو الصمت، أو بتنفيذ قرار حاسم كالإعدام:

وحينما شعر أن صوت يده على الطاولة لم يوصل الرسالة التي كان يرجوها في نفسه؛ وهو لفت تفكير الآخرين إليه حينما رأى قبول ما جرى من الكلام لديهم، زاده بصوت الصفعة التي وجهها إلى رأسي بعد أن تناول الكتاب سريعاً من يديّ، وأنزله بصورة أسرع على وجهي! فقد أحسست بذلك من حركة الرياح التي كانت تنفذ من مسامات قماش الغطاء وتلفح خدي.

لا أعلم حقًّا ما هو أمر صفعي في كل مرة يستاء فيها أحدهم؛ ولماذا لا يضعون حداً للنهاية فقط؟!

تملكني الذهول، وغابت تلك الثورة التي انطلقت في نفسي منذ لحظة وكنت أشعر فيها بأنني أستنشق الهواء، وأن من بين هؤلاء من يحسن الإنصات.

لقد حسبت حساب كل شيء تقريباً في عقلي؛ ولكن علّني ضربت وتراً حساساً في داخله، وعلّه كان يدافع عن موقفه لا غير، أو لعّل هؤلاء مجرد مجموعة مجانين بإمكانها أن تتهذب لحظة، وتتصلب لحظة أخرى، وتفعل كل الأشياء الغريبة في بقية اليوم!

انبثق من جسمي عرق بارد، واستندت إلى ظهر الكرسي وأنا أتساءل في أثناء ذلك:

"ماذا حدث؟

أين رزانة تلك البسملة؟

وكيف تحول ذلك الصوت فجأة من رقة إلى وحشية مخيفة؟".

ضج الجميع بعدها في صوت مرتفع.

منهم من يقول: "لا يحق لنا أن نفرض ما نعتقد به على الآخرين؛ فلا إكراه في الدين".

ومنهم: "لقد أحرق أمير المؤمنين عليه السلام المغالين فيه، فقد حدد الرجل مصيره بلسانه".

ومنهم من اكتفى بالتمتمة فقط!

شعرت بعد هذه الضجة الصاخبة بأني حقًّا في وسط محكمة، وأن هؤلاء هم المحلفون، وذاك الرجل هو القاضي، وصوت يده الذي تخيلته قبل قليل صوت مطرقة ما هو إلا صوت حكم الإعدام الذي سينزلونه بي آنفاً بسبب كثرة الهتافات السلبية التي كنت أسمعها.

فلم يكن هناك إلا كلمة حرق، ورصاصة، وشنق.. أين هي كلمات الرأفة، والرحمة..؟

ولماذا بتنا أمة تنسلّ عن قيمها الحقيقية في مواقف الحياة وكأنها لا تعني لها شيئاً؟

نحن نعلم يقيناً أن الرحمة مثلاً صفة حميدة، فهي من صفات نبينا صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1]؛ ومع ذلك فهي مجرد

---

(١) سورة الأنبياء: (١٠٧).

قلقلة لسان نتناقلها، وفي المواقف المتطلبة لوجودها أكثر من شيء آخر نسمح لأسوأ كوابيسنا تمثيل معنى الانتقام والحنق بحذافير ما نحمله من كتل الشيطنة.

والعجيب بدل أن نخجل ونندم نتفاخر عند الآخرين بعد ذلك، وكأن هذا العمل قد بات من سجل البطولات الشخصية التي يجب أن تسجل كيلا تنسى.

وكذلك نحن نعلم أن الغش ـ مثلاً ـ صفة سيئة حذر منها الإسلام: «ليس منا من غشنا»[١]؛ ومع ذلك فالغش قد بات أمراً مألوفاً لا بُدّ من التعايش معه في الوقت الراهن؛ لأن الهدف ليس هو كسب المال بوجه حق، بل كسب أكبر قدر ممكن منه!

لقد كنت في موقف عصيب جدًّا يحتاج مني اتخاذ قرار ما، في الوقت الذي ظل فيه ذهني خاوياً لم يخطر به شيء، وبقي لساني معقوداً وملتصقاً بحلقي، ولم تعد هناك أي فكرة تنقذني أصلاً من جهل وتعصب هؤلاء.

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٥ ص١٦٠ ب/الغش ح١.

فإنه من أصعب المعضلات توضيح الواضحات، ومن أصعب الأمور هو إقناع إنسان لا يراك إلا مجرد شيء يجب دهسه لو تجرأت وخالفته!

"هل أساوم على القيمة الصحيحة، وأتخلى عنها في قبال كسب رضاهم ليتركوني وشأني؟ فلن: ﴿تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[١]؛ ولكن ﴿إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[٢].

كيف أتخلى عن القرآن، والسنة، والعقل، ودليل الحكمة الذي لم يجدِ نفعاً معهم؛ وأركن إلى ما كان يهمهم وهو سند رواية؟

وهل يمكن أن أضع قيمة تضافر الآيات والروايات الصريحة، أو وجود القرائن العديدة الدالة على صدق المتن؛ إذا صادفنا مورداً فيه السند ضعيفاً؟"

---

(١) سورة البقرة: (١٢٠).

(٢) سورة البقرة: (١٢٠).

وبينما أنا مستغرق مع صراع النفس ذاك شعرت بخروجهم جميعاً إلا واحداً منهم، أحسست بأنه ما زال واقفاً خلفي من صوت زفيره وشهيقه الذي بدا واضحاً بعدما أعاد وضع القيود في يدي من الخلف.

أردت أن أقول له شيئاً من أجل الحصول على انطباع مبدئي لما سيجري قادماً، فلم أجد إلا قول: "هل حان وقت صلاة الفجر؟".

مكث الرجل صامتاً للحظة دون أن يرد عليّ بحرف؛ وكأنه كان يسأل نفسه عما إذا كان هذا الذي أمامه يستحق أن يقول له أية كلمة أم لا؟

ثم غمغم فجأة في شيء من الجهد: "لا أدري. دعك من هذا الآن وانشغل بماذا سنفعل بك لاحقاً".

أيقنت في تلك اللحظة من صوت الضوضاء الصادر من الخارج أنهم قد استبعدوا فكرة الموت دونما شك؛ ولكن حينما خمدت الأصوات فجأة، حتى الشعور بالرجل الواقف أمامي قد تلاشى واختفى، عاد انبعاث فكرة الموت المؤلمة في نفسي مرة أخرى.

وبينما كنت كذلك شعرت بصوت صرير الباب يفتح على حين غرة، وصوت وقع أقدام خفيفة متجهة نحوي.

اجتاحتني رجفة عاتية فصرخت بنبرة تشي بالخوف: "من أنت؟".

لقد كان واحداً منهم. عاد من أجل أن يحل قيود يدي بسرعة هائلة من دون أن ينبس ببنت شفة، فقط صوت إغلاق الباب بقوة كبيرة هو ما سمعته من أثره.

مكثت قليلاً على الكرسي متحجراً أتأمل هذا المشهد الغريب في يقظة كبيرة وانفعال عميق؛ حتى أنّي نسيت أن قيودي قد فكت، وأن بإمكاني أن أرفع الغطاء من على رأسي، وأتحرك بحرية تامة.

أطلقت صيحة مروعة، ثم اندفعت نحو الباب كي أحطمه. ألقيت بكامل جسدي عليه؛ لكني لم أجد سبيلاً للفرار؛ لقد كان مقفلاً من الخارج بالمزلاج ـ هذا ما كنت أعتقده في تلك اللحظة ـ!

عدت أحاول اقتحامه مرة تلو مرة، وأنا أنادي وأصرخ في جنون؛ ولكن من دون جدوى.

فبدا لي وقتئذٍ أن الثانية التي كنت أخشى الموت فيها ليست هي ضمن الثواني السابقة، بل إنها الثانية القادمة؛ فإن فكرة تركي هنا حتى الموت أراها أبشع من تلقي رصاصة سريعة.

ولكن مهما يمكن أن يحدث في الثانية القادمة، فليست تلك الفكرة هي ما سأكون آسياً عليها بعد موتي؛ بل فكرة أني سأخلف ورائي ثلاث نساء: واحدة منهن ستبقى من دون ابن، والثانية من دون زوج، والثالثة بلا أب؛ هي من كانت تمتزج بدموع تلك اللحظة.

صحت صيحة فزع أخرى مدوية، ثم سقطت مغشياً عليّ بعد ذلك.

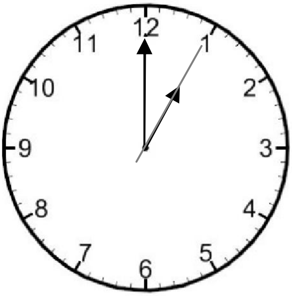

الثانية الخامسة

⋮

إنها ثانية البارقة الإلهية التي تومض لك فجأة؛ فترى نفسك معلقة بباب مناجاته سبحانه وتعالى المفتوح.

فهل حدث معك في ذات مرة؟

أن خضت موقفاً عصيباً كانت أبواب البشر جميعهم مغلقة ؛ وبلمحة بصر تغير الحال كله في لحظة ؛ إما بدعاء أو برحمة أو بغير ذلك.

كثيرٌ هم أصناف البؤساء في الحياة، والأكثر منهم بؤساً أولئك الذين لا يوقنون بأنه مهما نزلت بهم الحالات العصيبة ـ أو نزلوا هم فيها ـ أن هناك باباً مفتوحاً لم يوضع أيّ عنوان له على لافتة دخوله. فبإمكان جميع الخلق أن يلجوا منه؛ حتى المذنب، والفاسق، وشارب الخمر، والزانية.. بإمكانهم ذلك؛ ولكن المحور الهام ليس في إبقائه مفتوحاً؛ بل في ثانية الاستيقاظ!

فمنهم من توقظه الرحمة الإلهية، ومنهم من توقظه أفرادها كنفسه أو المواقف، ومنهم لا يوقظه إلا حتف الموت.

عندما أفقت من غشيتي لم أستطيع أن أعبّر عمّا كان يدور في نفسي، فإطباق الصمت كان حرياً بأن يخلق لي جوًّا من حالة التأمل التي كنت قد اعتدت على ممارستها لنصف ساعة يومياً على الأقل.

وكل ما كان ينقصني هو إزاحة تلك الأفكار التي كانت تثير في نفسي مزيداً من التعلق بأمور هذه الدنيا؛ لأتيح لروحي هجر مسكنها من هذا الجسد، والانطلاق إلى ذلك العالم الذي تبدو فيه الأشياء على ما هي عليه؛ أي: تبدو ظاهرة على حقائقها.

إلى العالم الذي يتسابق إليه السالكون إلى الله عزّ وجلّ، ويشدّون رحالهم نحوه، والذي يبدأ طريقه من تخلية النفس من رذائلها، وتحليتها بجميل صفاتها، وينتهي بالتعلق بمبدأ الواسطة في الفيض.

لا أعني بذلك المبدأ الله عزّوجلّ ؛ بل أعني به العلة التي تنتهي إليها جميع المعلولات لأنه عزّوجلّ ليس بعلة[١].

جلست مستنداً إلى الباب منتصب الظهر، مغمض العينين بخفّة أراقب حركة التنفس في كل شهقة داخلة وزفرة خارجة، ولما مضى من الوقت برهة أحسست بحركة شيء غريب أمامي ؛ ففتحت عيني ببطء لأرى ماذا يكون؟

"يا إلهي!

إنها حية صغيرة تحتاج إلى حجر لسحق رأسها"، قلت لنفسي قبل أن تزول الغشاوة عن عينيّ وأبصر بالكامل ؛ ولكني حينما تأملتها جيداً لم تكن إلا غصناً ميتاً لا يتحرك.

"ما هذه الأوهام؟"

كنت أردد ذلك وأنا أحرك ذلك الغصن لأتأكد بأنه فعلاً كان مجرد وهم.

أيقنت بأن هذه النتيجة كانت من عدم صلوح مقدمة التأمل التي تخللها تعلق الفؤاد بما في النفس من خوف في تلك اللحظة ؛

---

(١) المخازن ـ الميرزا حسن كوهر: ص٣٢.

فما أوصلني لذلك هو ما كان موجوداً في داخلي من أمـور نفسـانية ـ كالخوف ـ منذ بداية الشروع[١].

أعدت تهيئة نفسي مـن جديـد، وأحللـت محـل مـا يراودنـي مـن أفكار الانشغال بالتفكير في آياته تعالى:

في حركة الليل والنهار بصورة منتظمة، تعاقب الفصـول لنضـج الثمار، اختلاف أنواع الثمار وألوانها وفوائدها؛ حتـى حلّـت علـى نفسي حالة من الهدوء والسكينة.

كنت مستغرقاً في الاستمداد مـن ذلـك الشعور حتى أحسسـت هذه المرة بشيء آخر. كان لطيفاً يتحرك بخفة كالريشة على كتفي!

"علّه ملك أُرسل لمؤازرتي"، قلتها وأنا أبتسـم بسـمة الأمـل مـن شعور الإحساس به في بـادئ الأمـر؛ ولكـن حينمـا أصبـح محسوساً أكثر من الـلازم اجتـاحتني رجفـة عارمـة، فلـم أتـردد في أثنائهـا مـن فتح عينيّ لرؤيته!

ويا للأسف، لم يكن كما تخيّلته ملاكاً صغيراً مجنحـاً هـبط مـن العالم العلوي لينتشل أجزاء الألم الذي أنـا فيـه؛ بـل كـان عنكبوتـاً

(١) أقسام الكشف: شرح العرشية ـ الشيخ الأحسائي: ج١ ص٤٢.

أسودَ كبيراً نزل من سقف الغرفة الشبه مظلمة، ولما لم يجد سبيلاً للوصول إلى الأرض اتّخذ جسمي الهزيل قنطرة له!

فزعت منه كثيراً، وفزع أكثر مني حينما رآني متصلباً لا أقوى على الحركة بعد رميه من على كتفي إلى الأرض ليفر هارباً بسرعة من تحت باب الغرفة.

إن لحظة التأمل هذه كانت كسابقاتها الألف التي قمت بها وفشلت نتائجها في الوصول إلى ذلك العالم.

ليس لأن تحقق الأمر مستحيلاً؛ ولكنه يحتاج إلى رياضة قويمة مبنية على العلم والعمل، وإلى وقت طويل في جهاد النفس لتنفعل. فلا يتأتى الأمر بين ليلة وضحاها، ولا في جلسة يكون فيها الفؤاد مشغولاً بإشارات الارتباط بهذا العالم المادي(١)؛ إلا في حالة تفضله سبحانه وتعالى على عبده، فإن حصول ذلك يكون في أقصر وقت ممكن.

"على أي حال، إن لم أستطع إخراج روحي من جسدي لتنطلق نحو ذلك العالم بهذه الطريقة، فحتماً إن طريقة أخرى

---

(١) رسالة في جواب الأخوند الملا محسن "جوامع الكلم" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٩ ص٥٦٧

ستوصلني إلى هناك مباشرة ؛ إنها الموت"، قلت لنفسي وأنا قد بدأت للتوّ أقلّب هذه الفكرة على جميع وجوهها، وأتساءل:

ما هو الموت؟

هل هو تلك الفكرة الرهيبة التي تهاب منها جدتي بمجرد ذكرها، وتحاول جاهدة إرغامنا بتغيير موضوعها لو تطرقنا له أمامها ؛ أم إنه شيءٌ آخر؟

لنكن شجعاء ونواجه هذه الفكرة وجهاً لوجه ولو لمرة واحدة ؛ ليس لأننا جميعاً سائرون إليها، أو أنها قادمة إلينا لا محالة، بل لنعرف ماذا سيكون من مصير بعدها؟

فهل أرواحنا حينما تخرج من أجسادنا تذهب إلى أجساد جديدة أخرى ؛ يكون جمالها وطيب حياتها الجديدة منوطاً بما فعلناه في الحياة السابقة؟

كما يقول أصحاب مذهب التناسخ[(١)].

وهل أجسادنا العنصرية حينما تنحل وتعود عناصرها إلى الأرض يمتصها النبات، وتخرج في الثمار، ثم تختلط مع ذرات

---

(١) شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص١٠٧.

الآكـل لهـا ؛ فتخـتلط أعمـال الآكـل والمـآكول؟ كمـا قـال بعـض الفلاسفة في هذه الشبهة[١].

أم ماذا؟

إنه يبدو لي ـ على ضوء مشرب معتقدي ـ أنـني قبـل أن تغمـض عيناي سأرى الأشياء على حقيقتها كما قال تعـالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيد﴾[٢].

وبعد أن تخرج روحي سيغسل هذا الجسـد، ويسـجى، ويصـلى عليه من قبل الأقربين والبعيدين. والـذين أحسنت إلـيهم سـيرفعون نسمات الرحمات إليّ، أمـا الـذين أسـأت إلـيهم فلـن يتكلفـوا عنـاء القدوم إلى العزاء، وإن فعلوا ذلك فإنهم لن يشغلوا أنفسهم بقـراءة بضع سور تضيء لـي أمر وحشـتي في القـبر؛ بـل سينشـغل بعضـهم بطمطمة الحديث والثرثرة.

وبعـد أن أدفـن أول مـن سـينثر الـتراب علـى قـبري هـو أولئـك الـذين سـيرثون ممتلكـاتي. ففـي أول يـوم سـيبكون بشـدة ألمـاً علـى

---

(١) رسالة في جواب الميرزا أحمد "جوامع الكلم" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٥ ص٣.

(٢) سورة ق: (٢٢).

الفراق، وفي ثانيه سينشغلون قليلاً بالمعزّين يحصون عدد من حضر ومن لم يحضر منهم، وفي ثالثه ستخف حرارة البكاء أكثر، ولن تتعالى إلا حينما يشاهدون شيئاً من مقتنياتي، أو حينما يجمعون ملابسي لرميها، أو لإرسالها إلى أقرب جمعية خيرية؛ فمهما كان صاحبها عزيزاً على نفوسهم فإن هذه الأشياء ستبقى لرجل ميت من الواجب على الجميع عدم لمسها!

وبعد مدة ستجدهم ضاحكين متنعمين بما حازوه من غير تعب، ولن يذكروني بدعاء أو بزيارة لقبري ليرشقوا على سطحه قليلاً من رذاذ الماء؛ إلا حينما يشتعل منبّه الأبوة عندهم.

وعلى أي حال، ستعود روحي لجسدي في القبر لأسأل من قِبل منكر ونكير، وبعدها سيضمحل جسدي العنصري، وسوف تخرج روحي في جسمها إما إلى جنان الدنيا وإما إلى حظائر النيران.

سأبقى في عالم البرزخ إلى أن ينفخ في الصور، وسيسمح لي بزيارة جسدي الأصلي الذي بقي مستديراً في القبر في أيام الجُمع والأعياد.

وفي يوم القيامة ستترك روحي ذلك الجسم البرزخي لتعود مع جسمها الأصلي إلى جسدي الأصلي الموجود في القبر؛ لأخرج في يوم المبعث به كما تخرج الكمأة من الأرض(١).

"آه على ما سيحدث بعد الموت"، قلتها بصوت شجي بعدما انسلّت فكرة الموت في ذهني بسرعة هائلة.

وقفت بعدها بلا حراك لا أعلم ماذا سأفعل؟

ومن دون إرادة انحنيت متقرفصاً أتيمم من أثر التراب الذي كان يكسو أرض الغرفة.

وبوقفة منتصبة مع نية الشروع لصلاة ركعتين أختتم بهما نهاية حياتي كبرت تكبيرة أرجف صوتها جميع أعضاء جسدي، وأحسنت القراءة التي لم تخلُ من دمعة توبة ودمعة أمل، ولما سلمت جلست ويداي ممتدتان نحو السماء، وبصري متسلّط نحو الباب الذي لا يخيّب من طلبه، وأنا أنادي:

(إلهي كيف تطرد مسكيناً التجأ إليك من الذنوب هارباً، أم كيف تخيب مسترشداً قصد إلى جنابك ساعياً، أم كيف تردُّ ظمآناً

---

(١) شرح الزيارة الجامعة "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٤ ص٣٤ـ٣٨.

ورد إلى حياضك شارباً، كلا وحياضك مترعة في ضنك المحول، وبابك مفتوح للطلب والوغول، وأنت غاية المسؤول، ونهاية المأمول)[١].

إلهي (إني أجد سبل المطالب إليك مشرعة، ومناهل الرجاء إليك مترعة، والاستعانة بفضلك لمن أملك مباحة، وأبواب الدعاء إليك للصارخين مفتوحة، وأعلم أنك للراجين بموضع إجابة، وللملهوفين بمرصد إغاثة، وأن في اللهف إلى جودك والرضا بقضائك عوضاً عن منع الباخلين، ومندوحة عما في أيدي المستأثرين)[٢].

وفجأة هبت ريح خفيفة شعرت معها بصوت خلفي؛ ولما أدرت رأسي لأرى ماذا يكون ذلك؟

تفاجأت بأن باب الغرفة قد فُتح قليلاً!

كان ذلك منظراً مفزعاً يقف له شعر الرأس، تجمدت في مكاني لحظة، ثم هرولت مسرعاً نحوه لأفتح ما تبقى منه.

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨٤ ب١٣/ نافلة الفجر وكيفيتها وتعقيبها والضجعة بعدها ص٣٤٠ ح١٩.

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ٩٥ ب٦/ الأعمال وأدعية مطلق ليالي شهر رمضان وأيامه.. ص٨٣ ح٢.

إن ما حدث ليس كرامة ، فأنا لست من الأولياء الصالحين وإن كنت أتمنى أن أكون منهم ؛ بل الحقيقة هي :

أن الباب كان مفتوحاً طيلة الوقت الذي كنت أستند عليه ، ولم أكن منتبهاً لذلك لأن أولئك الرجال كانوا يدخلونني ويخرجونني منه وأنا مغطى الرأس ، فلم أدرك أنه كان يُفتح من الداخل إلى الخارج ، وليس من العكس !

بعد اكتشاف ذلك من خلال فتحه وغلقه عدة مرات ، وأنا أقف عنده قبل خروجي من الغرفة ؛ أضافت هذه اللحظة عذاباً فوق العذاب الذي كنت أختزنه ، ولم أجد من الكلمات ما أستطيع به أن أعبّر عمّا أشعر به من انفعالات.

فهل أحسن الظن بأولئك الذين تركوا الباب مفتوحاً ؛ أم لا ؟

ولكن حتى لو فعلت ذلك وغفرت لهم ما فعلوه ؛ أين يمكن أن أجد مبرراً للفكرة المؤلمة التي خلفوها في داخلي ؟

الفصل الثاني

لكن القصة لم تنتهِ هناك!

الأحساء ـ آذار (٢٠٢٠م)

بعد عشر سنوات من حادثة الاختطاف

صالح

جلست بحذر فوق صخرة صغيرة متسائلاً: كيف مرّت الأيام والليالي مثل بروق تتغير سريعاً سوداء وبيضاء؟ وأنا أنظر إلى قطعة الزجاج البالية الملقاة على أرض تلك المقبرة المخيفة، وهي تعكس ملامح وجهي بجانب القبر الذي كنت أبحث عنه لساعات في تلك المقبرة في ذلك اليوم بالذات.

"لقد شبت"، قلت لنفسي وأنا أتفقد كمية شعر المشيب الذي أخذ يكتسح رأسي ولحيتي، وفي نفس الوقت كنت أحاول منع ذلك الطيف الذي يريد أن يفتح صفحة ذكريات الشباب ليوقظ أسوأ الأحداث فيها المناسبة مع واقع هذا المكان الذي أنا فيه الآن؛ فيجعلني أندم أكثر من ذي قبل.

فمهما يكن، إن ما يجري في فترة شبابنا ليس متوقفاً على هذه الحياة فحسب؛ بل إن أمره يطال حتى ما بعدها، ولذا قال الإمام

أبو عبدالله عليه السلام : «كان فيما وعظ به لقمان ابنه : .. واعلم أنك ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله عز وجل عن أربع : شبابك فيما أبليته، وعمرك فيما أفنيته، ومالك ممّ اكتسبته وفيمَ أنفقته..»[١].

وعندما تعود بي الذكرى إلى تلك الفترة - إن كان يجدر بي تسميتها بالذكرى لأنها لم تفارقني قطّ -، أتذكر جزءاً من أجزائها الذي لا يبدو لي أنه مجرد حكاية يجب أن تروى ليعلم الناس حقيقتها؛ بل إنها قضية من تلك القضايا التي ستبقى شوكة في خاصرتي، وستبقى مصدر ألم وأرق بالرغم من مرور عشر سنوات عليها، وبالرغم من أن بطلها الذي شرعت للتوّ بمسح الغبار عن سطح رخامته ليس موجوداً الآن أمامي بجسده ليستمع إلى الدور الذي كان لي في ما آلت إليه نهايتها.

في البداية..

لم أكن شابًّا مميزاً عن بقية الشباب؛ فقد كنت أتشارك أحلاماً من نفس طينة أحلامهم أغلبهم، وأعيش في ضيق أفق توجهات من نفس نمط توجهاتهم معظمهم.

---

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج٢ ب/ذم الدنيا والزهد فيها ص١٣٥ ح٢٠.

فلا قيود الحياة التي طالما كان والدي يقرأ نص تجربته عليّ فيها : "عليك أن تجتهد في دراستك لتحصل على وظيفة جيدة وتعيش برخاء" في منتصف كل ليلة أرجع فيها متأخراً إلى المنزل، كانت تعني لي شيئاً، ولا الطموحات التي كنت أرآها سخيفة، ويمارسها بعض الشباب الذين كنت أسخر منهم حينما أرآهم كانت تشدّ اهتمامي، أو تزحزح أمراً في داخلي.

أتذكر اليوم كيف كنت أنادي بأعلى صوتي في وسط الشارع لذلك الشاب الذي كان يعبر يومياً ببسطته الصغيرة متجهاً بها نحو السوق في طموح أن يكون تاجراً في يوم ما؛ لقد تحقق حلمه بالفعل مع كفاحه المستمر، وها هو اليوم من أكبر التجار في منطقتنا.

وحينما أتذكر سخريتي له الآن، أو لما أراه وهو يعبر مني بسيارته الفخمة ليركنها بجانب فلته العجيبة، لا أعرف أيّ منا هو المسكين الذي يجب أن يرثى لحاله.

فمجموعة الشباب الذين هم على شاكلتي، أن نُبرزَ شخصياتنا للعالم سواء أكان بأجمل ما يمكن فيها أو بأسوئه، وأن نتعصب لآرائنا وأفكارنا وإن كانت خاطئة، وندافع عنها حتى في

وجه أقرب الأقربين لنا كالوالدين ؛ هو شيء قليل بالنسبة لما تحتله تلك المنطقة من ذواتنا الغامضة، والتي يحتاج مجرد تغيير أي شيء فيها ـ وإن كان طفيفاً ـ إلى شخصية نحن نتأثر بها أكثر مما هي تؤثر فينا دائماً.

ولا يهم من تكون هذه الشخصية ما دامت تحمل نفس التطلعات التي نرغب في التعايش معها، رجل أو امرأة، صالح أو طالح، صديق أو عدو ؛ ففي النهاية نحن سنقدسها، وسنشعر بأن كل حركة أو سكون منها هو مجرد دغدغة لما في نفوسنا الشابة.

نقوم بالتسابق في اقتناء صورها الشخصية وإبقائها على جدار غرفنا ـ أو في أي مكان آخر ـ لنبقى معها دوماً، نراقب تغيراتها في الحياة لنضع مزيداً من النقاط على حروف تقليدنا لها، نتأثر حينما تتأثر بالفرح والحزن، وكأننا أرواحها البعيدة التي يجب أن تحسب لها ألف حساب في كل خطوة تخطوها.

وكانت الشخصية التي تأثرتُ بها لم تحمل طابعاً كلاسيكياً قديماً، فطالما نبذتُ ذلك القيد الذي أرآه يؤخرني عشر سنوات للخلف عن المحيطين بي، ولا هي بالشخصية المتحضرة بشدة

تناهض قيم الحرية العلمانية بصورة فجة؛ بل كانت غريبة جداً في طباعها وفي تناقض مكوناتها.

متنمرة ولكنها طيبة القلب، مشاغبة ولكنها ذكية جداً، غير مبالية لشيء ولكن الدين كان يمثل القيمة الأسمى لها في الحياة.

إنها شخصية صديقي "منذر" الذي كنا ندعوه "بالتمساح" في أيام الدراسة الثانوية.

فشخصية كهذه ـ في ذلك الوقت والمكان ـ كان من الأفضل أن تكون صديقاً لها، أما معاداتها فيمكن أن يصبح لعنة حقيقية في حياتك.

وبغض النظر عن الجوانب التي كنت أرآها سلبية فيه إلا أن أمر تديّنه كان أكثر شيء يعجبني في مكونات شخصيته، وهو بالأحرى ما جعلني منقاداً له كالأعمى فيه. فاختيار المسجد الذي سنصلي فيه، وحضور المحاضرات الدينية، وغير ذلك؛ كان أمره منوطاً بحكمه، ولا شأن لي به بتاتاً.

وفي ذات يوم، ونحن جالسين في أحد المجالس نستمع إلى كلمات رجل الدين الذي قام مجموعة من الشباب بدعوته لبيان

بعض الحقائق في الأخلاق الدينية ؛ صاح صديقي "منذر" فجأة في وجهي : "اسكت واستمع إلى ما يقوله رجل الدين من دون مقاطعته".

ولم يكن الجرم الذي عاد عقابه تلقي تلك الكلمات منه، والنظرات الحارقة من قِبل جميع الحاضرين ؛ إلا أني قاطعت رجل الدين ذاك بقولي : "ما دليلك؟" ؛ حينما أحنى منعطف الجلسة إلى أمر آخر لا أعرف ما المغزى من دسّه فيها : ".. وعلى أفكار الشيخ الأوحد مآخذ عديدة من قِبل علمائنا..".

ابتسم الشيخ في وجه صديقي أولاً، وهو يومئ له بيده وكأنه يشكره على ردة فعله، ثم نظر إليّ بنظرة أحسست بحرارتها وهي تخترق سطح عينيه المتوقدتين وقال :

"يجب عليك أن تسمع منا من دون مناقشة أو طلب دليل على ما نقول ؛ فنحن رجال الدين أعلم من العوام في هذه الأمور!".

كان لرده في نفسي وقعٌ سيئ في بادئ الأمر ؛ خصوصاً أني كنت كثير التساؤل عن مدى علمية رجل الدين هذا بعد تلك الجلسة، وتوجهه الفكري، وغير ذلك.

ولهذا فقد كنت كثيراً ما أعيد تكرار هذا الرأي على صديقي منذر في نقاشاتنا بعد ذلك، وكان هو لا يبرح من تكرار جملته التي حفظتها عن ظهر غيب:

"يا صالح! إن رجل الدين هذا مرموق عند الآخرين، ولا يجب عليك التدقيق في كلامه.. استمع مني فأنا أخبر منك في معرفة رجال الدين، وأوسع باعاً.."

ومع مرور الوقت أخذ مفعول المثل الذي يقول: (من عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم) ينكت في شخصيتي، ويذيب ما كنت أتمسك به نحو رجل الدين ذاك؛ حتى أصبحت بعد فترة من ندمائه، ومن المقتنعين بكلامه، والخاضعين لأوامره في كل شيء.

ولعلّ ما ساعد في انجرافي خلفه هو النظرة التي كان يرسمها لي والدي حينما أقول له بأني ذاهب إلى المسجد، أو إلى محاضرة، أو مناسبة دينية، وأنا بأبهى حلتي لمرافقة رجل الدين ذاك ـ كما كان يطلب منا ـ؛ ليكون لدخوله وخروجه هيبة مصطنعة، وجذب لأمثالنا من الشباب إليه لهدايتهم كما كان يقول دائماً:

"مساكين هم الشباب في هذا الزمن ؛ حينما تجدوا الضائع منهم في زخم الحياة أحضروه إليّ لأفتح له باب النور".

مضت الأيام على هذه الحالة، وكان المطلوب منا بالإضافة إلى مرافقته كالظل، هو الإنصات له من دون التحقق خلفه فيما يقوله.

ولما تشبع فكرنا من كلماته وأصبحنا كالمرآة التي تعكس أفكاره، ترقّى أمر طلبه إلى أن نكون مبشرين وناصحين باسم الدين بالرغم من أننا لم نفتح ولا صفحة منه ؛ حتى القرآن الذي يُعتبر الكتاب الأول في الإسلام، والذي لا نعرف ملمس صفحاته إلا في شهر رمضان، كنا عادة ما يمر بنا الشهر من دون أن ننتهي حتى من إكمال ختمة واحدة فيه.

لا أنكر بأني كنت متردداً قليلاً في تلك الفترة من أمر القيام بالدعوة تلك ؛ غير أن اللقب الجديد الذي كان يطلقه عليّ في كل مرة يناديني فيها "العارف التقي" حتى التصق مع شخصيتي، واستفحل عند الآخرين على اسمي ؛ جعلني أزيح أمر ترددي، وأتعلق في رجل الدين ذاك أكثر مما سبق، في احترامه، أجلاله، تقدسيه، وفي الدفاع عنه بأي وسيلة كانت.

فلا أنسى كيف ثرت في ذلك اليوم الذي وصلني فيه مقال لأحد رجال الدين يرد فيه على كلمات رجل الدين الذي بت أتبعه أينما كان.

"شيخنا العزيز! ماذا تريد أن نفعل بأمر المقال المنشور ضد رأيكم؟"، قلتها له وأنا في ثورة الحنق والغضب.

فجاء أمره: " تصدّوا له بالمثل".

لم أبت في تلك الليلة في فراشي حتى ملأت وسائل التواصل بالرد على كاتب المقال بأيّ وسيلة كانت، وإن استدعى الأمر تزييف الحقائق وتلميعها.

غير أن ما كنت أعتقد بأنه فوزاً وانتصاراً ساحقاً توالى بالمزيد من الردود من نفس نوع ذلك المقال من مؤيديه؛ مما جعل أمر رجل الدين يأتينا هذه المرة بصورة أخرى، وهو تهديد كاتب المقال ليكون عبرة لغيره؛ خصوصاً لما حوّل مقاله إلى كتاب، ونفدت نسخه بلمح البصر.

لعلّ الأمر حينما جاء ساذجاً هكذا: "هددوه" من دون ذكر تفصيلٍ له؛ هو ما دفعنا إلى ارتكاب حماقة التهور قليلاً واختطافه بمعونة جميع ما أتيح لنا من وسائل وفرص.

وعلى الرغم مما حدث من أحداث في عملية التهور تلك؛ فأنا ما زلت حتى الآن أشعر بتأنيب الضمير، وأحسّ بنفسي مثل مَن التحق بعدو، أو مثل من خان جماعته.

فما حدث قد يعتقد البعض أن فيه نوعاً من المبالغة كأمر خطفه، أو إبراحه بالضرب، أو تركه في تلك الغرفة بعد كل ذلك؛ ولكن ذلك هو الحقيقة المرة التي جرفتها عنصريتنا نحو أسوأ ما كنا نملك حينما امتزج سوء النفس بقوة السلطة في تلك اللحظات، وهو الحقيقة التي ستجرف تيارات الفتن إلى ما هو أسوأ منها إن استمر الصراع في هذا الأمر.

فلا تتعجب كثيراً مما فعلنا؛ فالعالم أجمعه قد تلمّس أكثر من ذلك بأمّ عينه من المجموعات المتطرفة الذين خلقوا التطرف في العالم في فترة من الفترات؛ فإن الصور المتناقضة من أفعالهم التي رآها جميع العالم لم تأتِ إلا حينما تفشّى فيهم مرض التطرف!

ففـي لحظـة كنـا نـراهم يـدعون إلى الـدين، وفي لحظـة أخـرى يقطعـون رأس رجـل، أو يغتصـبون فتـاة علنـاً، أو يـذبحون طفـلاً ببرودة أعصاب.

كيف وصلوا إلى ذلك؟

لا تعتقد بأن هؤلاء فجأة أصبحوا هكذا وكأنهم طفرة جينية؛ بـل إنـه قـد تم صـرف الكـثير مـن الوقـت في تحويلـهم إلى تلـك الوحوش، وإلى مجرد أدوات بشرية يستعين بهـا المتطرفـون لنشر مـا يريدونه من أفكار.

تماماً كما حدث معنا حرفاً بحرف!

لا أقول بأننا مثلهم؛ بل أقول إن آلية التطرف إذا لم نكبحها قد تصل إلى ما لا يحمد عقباه، وإن اختلفت الدوافع والرؤى.

فالـذي قادنـا إلى مزيـدٍ مـن تـوالي ثـواني الأحـداث مـع ذاك الكاتب، هو التطرف ضد فكر مشرب عقيدته الدينية؛ لأن الشرارة إذا أُشعلت في حزمـة الحطـب اليابسـة لـن تخلـق نبتـة خضـراء، فهـي ليسـت قطـرة مـاء رطبـة؛ بـل سـتحرق كـل شـيء في هـذا الحيـاة: المشاعر، والوقت، والصحة.. وكل شيء هو ثمين فيهـا. حتـى نحـن

البشر ستحرقنا معها ؛ فمن يقول بأننا لم نتحول إلى رماد بعد تلك الحادثة؟!

فشنّ الهجوم الذي لم أجد له مبرراً ـ حينما زالت غشاوة فكري ـ على مشرب الفكر الذي كان يحمله لم يأتِ من نواح اعتباطية، أو من ردود علمية صريحة توصلنا إليها ؛ بل هو مما كان يغسل به دماغنا رجل الدين ذاك ـ أو غيره ـ من مياه نهر الأفكار المتطرفة عن الشيخية، الذي كان سببها الرئيس :

إما من باب الانطواء على ما أنسته النفس من قواعد وأفكار بجهل صارم ؛ بدلاً من ممارسة التفتح الذهني الذي يجعل للطرف الآخر حق عيش الحياة برأيه وإن كان مخالفاً لغيره.

أو من باب الحسد بما عند الآخرين، الذي حينما تنفجر مشاعره السلبية فإنك لن تعرف في أي قالب ستنفجر فيه. فقد كنا نقرأ كثيراً في كتب الشيخ الأوحد قدّس سرّه، وفي كتب أتباعه أيضاً، ونستمع لمحاضراتهم من أجل الاصطياد عليهم في المياه العكرة ؛ وفي نفس الوقت الذي كنا نقوم فيه بذلك كان هناك جانب يلامس

مشاعرنا من كلماتهم، وجانب تنمو فيه نبتة الحسد التي كانت تروم في داخل نفوسنا بلا هوادة.

فالحق إنه كانت تمر علينا نكات حكمية كثيرة نشعر بجمالها الفطري وبندائها الإلهي؛ ولكن حينما نحملها لرجل الدين ذاك أو غيره لا نعلم كيف يستطيع تشويهها في لحظة أمامنا، وفي إحراق جميع مشاعرها من أحاسيسنا بالرغم من وجود الأدلة التي لا تجعل للنفس مكاناً للشك في صحتها!

فباختصار: إن ما جرى هو وليد مؤثرات خارجية متآلبة على فكر الشيخية، حولتنا من أناس متلاحمين متراحمين مع مرور التأثير عليها إلى مجرد أسلحة عمياء، أو إن شئت أن تقول إلى دمية تحركها تيارات الفتن كيفما شاءت.

وعلى أي حال، وإن حصلت للبعض يقظة في نفس يوم اختطاف صاحب هذا القبر فقام البعض منا في آخر لحظة بالوقوف في وجه نوايا رجل الدين ذاك ومن كان يؤازره، التي لم يكن يُعلم إلى أين ستؤول إلا الله؛ إلا أني ما زلت حتى الآن مديناً له بشيء ما في حياتي السابقة، يكاد يكون أمر نسيانه محظوراً على من هو

مثلي ؛ وهي الفكرة المؤلمة التي خلفناها في نفسه من وقع الأحداث التي تلمستها من أوراق مذكراته !

فمن صدفة الأقدار التي تكاد تكون أغرب من الخيال المحاك في الروايات هو شرائي لتلك المنضدة الخشبية من سوق الأدوات المستعملة.

لم أكن بحاجة إلى منضدة أساساً ولكنها عُرضت مع مجموعة من الأدوات التي بيعت لي بالجملة ؛ فحملتها إلى مزرعتي لإتلافها بسبب خشبها البالي قليلاً.

وحينما قمت بتفكيكها وجدت رزمة من الأوراق الصفراء غير المنتظمة في الدرج. كنت على وشك رميها في النار غير أن التوقيع الذي كان يحمل اسم "عبد علي" على ظهرها استوقفني بشدة ؛ فهذا الاسم من المحال أن أنساه ما حييت.

نزفت دماً بدل الدموع حينما قرأت ما كتبه فيها ، وكم من الأسى والمعاناة النفسية قد تعرض لها بعد تلك الأحداث؟

لا أفخر بما فعلته كما قال في مقدمته ؛ ولكني كما قلت سابقاً بأن طريق النفس الأمارة بالسوء لا يقود إلا لما هو أسوأ مما نظن في داخلنا بكثير إن سخر في حروب الفتن.

ومن أجل تسديد الدين الذي أشعر به نحوه، ولأكفر عن معاناتي لتحرير نفسي وعدته بتحقيق الرغبة التي تمناها في مقدمته ؛ وهي نشر روايته.

التوقيع / صالح

أنا الرجل الذي سألتك: هل أنت شيخي؟ لأول مرة في المقهى، ونفس الرجل الذي وجه إليك أكثر من ضربة مبرحة تالياً.

ملاحظة:

مكتوب على رخامه قبره .(عبد علي) .أنه توفي قبل سنتين بالضبط من تاريخ هذا اليوم، وهو نفس اليوم الذي صادف واقعة اختطافه!

المصادر والمراجع للمعلومات العلمية والتاريخية

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ إجازات الشيخ أحمد الأحسائي ـ تحقيق/ د. حسين محفوظ: بغداد ١٣٧٦هـ.

٣ـ إحقاق الحق ـ الميرزا موسى الأسكوئي: الكويت ـ مكتبة الإمام الصادق عليه السلام العامة، الطبعة الرابعة ١٤٢١هـ.

٤ـ أعيان الشيعة ـ السيد محسن الأمين العاملي: بيروت ـ دار التعارف.

٥ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ـ الشيخ محمد باقر المجلسي: بيروت ـ دار إحياء التراث، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ.

٦ـ تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي ـ تحقيق وتعليق/ الشيخ عبدالمنعم العمران: بيروت ـ دار المحجة، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

٧ـ دليل المتحيرين ـ السيد كاظم الرشتي: الكويت ـ منشورات مكتبة الإمام الصادق عليه السلام، الطبعة الثانية.

٨ـ الدين بين السائل والمجيب ـ الميرزا حسن الأحقاقي: الكويت ـ منشورات مكتبة الإمام الصادق عليه السلام ١٩٩٢م.

٩ـ روضات الجنات ـ السيد محمد باقر الخوانساري : إيران ١٣٠٦هـ.

١٠ـ سيرة الشيخ أحمد الأحسائي ـ تحقيق/ د. حسين محفوظ: بغداد ـ دار المعارف ١٩٥٧م.

١١ـ شجرة طوبى ـ الشيخ محمد مهدي الحائري : النجف ـ منشورات المكتبة الحيدرية ، الطبعة الخامسة ١٣٨٥هـ.

١٢ـ شرح الزيارة الجامعة الكبيرة ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي : كرمان ـ مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى.

١٣ـ شرح العرشية ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي : بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

١٤ـ الشيخية ـ السيد محمد حسن آل الطالقاني : بيروت ، ١٤٢٠هـ.

١٥ـ صحيفة الأبرار في مناقب الأطهار ـ الميرزا محمد تقي بن الميرزا محمد المامقاني : بيروت ـ دار الجليل ١٤١٤هـ.

١٦ـ الكافي ـ الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني : بيروت ـ دار الأضواء ١٤٠٥هـ.

١٧ـ المخازن ـ الميرزا حسن الشهير بكوهر : بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

١٨ـ نجاة الهالكين ـ الشيخ محمد بن أبي خمسين : بيروت ـ دار المحجة البيضاء ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

الفهرس

مقدمة المراجع الفكري ٧

الفصل الأول : بعد خمسة أسابيع من حادثة الاختطاف ١١
الثانية الأولى ٣٢
الثانية الثانية ٣٥
الثانية الثالثة ٥٩
الثانية الرابعة ٨١
الثانية الخامسة ١٠١

الفصل الثاني : بعد عشر سنوات من حادثة الاختطاف...... ١١٥

المصادر والمراجع ١٣٣
الفهرس ١٣٥